القاهرة فى يوم الجمعة ٧ جماد الثانى سنة ١٣٥١ — ٧ اكتوبر سنة ١٩٣٢ — ٢٧ توت سنة ١٩٤٩

الرياسة

لسان حال الاجزاء الدستورية

الثمن ١٠ مليمات

الثمن ١٠ مليمات

ملحق خاص للعدد نمرة (٢٩٢٥)

بابيت جماعة نشر الثقافة بالاسكندرية

بعض موضوعات هذا العدد

جماعة نشر الثقافة للاستاذ خليل شيبوب رئيس الجماعة

النزعة الروحية للدكتور على مصطفى مشرفه وكيل كلية العلوم

ابن المقفع وآثاره الادبية الاستاذ أحمد أمين ستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية

التعليم العالى لحضرة المربية الفضلى السيدة لبوبه مرسى

ابن خلدون الرجل — كلمة للاستاذ صديق شيبوب عضو الجماعة

ابن خلدون فى مصر — خطبة للاستاذ بشير الشندى أمين مكتبة البلدية

ابن خلدون المؤرخ للاستاذ محمد سعيد

ابن خلدون الفيلسوف للاستاذ مصطفى فهمى

ابن خلدون العالم الاقتصادى للاستاذ خليل شيبوب رئيس الجماعة

فتاة بلا قلب للاستاذ عبد العزيز عمر سامى ليسانسيه فى الحقوق

بعض موضوعات هذا العدد

رسالة جماعة نشر الثقافة للاستاذ يوسف فهمى

الامتحان الاستاذ عبد العزيز فياض ليسانسيه فى التربية والآداب

مكتبة الاسكندرية للاستاذ صديق شيبوب عضو الجماعة

الشاعر اقبال — محاضرة للاستاذ عبد الوهاب عزام الاستاذ بالجامعة المصرية

الفرد والجماعة مناظرة علمية للاستاذ مصطفى فهمى والاستاذ نشار

هارون الرشيد للاستاذ عبد الحميد العبادى الاستاذ بالجامعة المصرية

كاميل تلعن روما — قصيدة للاستاذ وديم جبران

فاوست للاستاذ حنفى محمود جمعه المحامى

شخصية الوقف وآثارها للاستاذ زكريا البرونى المحامى

حيرة — قصيدة للاستاذ عبد الحميد الشوربى المحامى وعضو الجماعة

شخصية الوقف واثارها

يخلط كثير من الناس بين شخصية الوقف وشخصية الناظر وشخصية المستحقين . ويؤدي هذا الخلط الى كثير من التصرفات السيئة التي تضيع حق الوقف أحيانا . وتضيع حقوق المستحقين وذائفيهم في جميع الاحيان

من أجل هذا رأينا أن نعقد هذا الفصل لنحدد شخصية الوقف ونبين ما يترتب عليها من الآثار القانونية

***

عرف الفقهاء الوقف أنه (حبس العين عن تمليكها لاحد من العباد والتصدق بالمنفعة) ويستتبع هذا التعريف أنه بمجرد وقف العين تخرج من ملك الواقف . ويمتنع عليه أن يتصرف فيها بيع أو هبة أو يرتب للغير عليها حق اختصاص أو رهن أو امتياز أو غير ذلك من الحقوق العينية . بل يمتنع عليه كذلك أن يتصرف بشأنها تصرفا مما يدخل في باب الادارة — كالاجارة — الا اذا كان ناظرا على الوقف . فان لم يكن كذلك فليس له أن يتصرف بحال من الاحوال

وتطبيقا لهذه القاعدة قال الفقهاء ببطلان الوقف المعلق على شرط أو أجل (الخصاف ص ١٢٨ — كتاب الوقف للشيخ محمد بك زيد ص ١٤ و ١٥ — قدري باشا مادة ٦)

وقضت محكمة الاستئناف المختلطة ببطلان الوقف المعلق نفاذه على وفاة الواقف واعتبرته وصية (حكم محكمة الاستئناف المختلطة الصادر في ١٤ مارس سنة ١٩٠٧ ومنشور بمجلة المحاكم المختلطة السنة ١٩ ص ١٧٨)

فاذا تقرر أن وقف العين يخرجها عن ملك الواقف وتقرر كذلك أنه لا يدخلها في ملك المستحقين لان حقهم يقتصر على الاستحقاق ولا يتناول الرقبة فلمن تنتقل ملكية العين الموقوفة

قال الفقهاء أنها تنتقل الى جهة الوقف وهذا تعبير اسلامي يطابق في التعبيرات الحديثة الشخص المعنوي وهو كائن معنوي ذو أهلية قانونية

(حكم محكمة الاستئناف المختلطة الصادر في ٤ ابريل سنة ١٩٢٢ ومنشور بالجازيت عدد ديسمبر سنة ١٩٢٣ ص ٣١ نمرة ٤٨)

وقد جرى قضاء المحاكم الاهلية والمختلطة على اعتبار الوقف شخصا أدبيا أو معنويا ناضما لقوانين البلاد الموجودة فيها عيان لوقف وسيرى القارئ فيما بعد طرفا من الاحكام التي قررت هذا الرأي

انما لا يفوتنا أن نثبت حكما خالف هذا القضاء الثابت الذي اجمعت عليه المحاكم الاهلية والمختلطة لنتعرف وجاهة الحجج التي يستند عليها خصوم هذا الرأي

قضت محكمة الاستئناف المختلطة بتاريخ ٧ مايو سنة ١٩٢٥ انه بحسب القوانين المصرية لا يمكن اعتبار الشخص الادبي له شخصية معنوية الا بقانون . ولا يوجد قانون لا في مصر ولا في أي بلد من البلاد الاسلامية يعتبر أن لجهة الوقف شخصية معنوية (راجع كتاب القانون المدني للمرحوم فتحي زغلول باشا ص ١٤٠) والفقهاء جميعا لم يعتبروا لجهة الوقف شخصية معنوية بل شبهوا جهة الوقف بالقاصر وعهدوا ادارته الى وصي سموه ناظر وقف وقالوا بالاجماع أيضا أن خطأ الناظر لا يترتب عليه مسؤولية جهة الوقف — راجع تنقيح الحامدية وكتاب قدري باشا المواد ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠)

(يراجع هذا الحكم في مجلة المحاماة السنة الخامسة ص ٨٣٩)

وقد تولت مجلة المحاماة الرد على هذا الحكم الفرد ونحن نثبت فيما يلي خلاصة ردودها

أولا) يقول الشرعيون ان الوقف يخاصم ويخاصم ويكون مدعيا ومدعى عليه لا في المنفعة فقط بل وفي رقبة الاعيان الموقوفة . والذي يمثله هو الناظر ، فنيابة الناظر تقتضي أن يكون هناك شخص ينوب عنه ويمثله في الخصومة

ثانيا) اذا كان من المقرر أن للناظر أن يستدين الوقف في حالة الرصد (وسنبينها فيما بعد) أو باذن القاضي فكيف يثبت الدين في ذمة الوقف اذا لم يكن للوقف شخصية قائمة بذاتها

ثالثا) اعتبرت المادة ٨ من القانون المدني المختلط الوقف شخصا معنويا تجوز مقاضاته أمام المحاكم المختلطة في المنازعات الخاصة بوضع اليد وأحالت المنازعات الخاصة بأصله الى المحاكم الشرعية

رابعا) مخالفة هذا الحكم لما اجمع عليه قضاء محكمتي الاستئناف الاهلية والمختلطة

وليس من شأننا — في هذا المقال — أن نذهب وراء التفاصيل أو أن نبحث خصائص الشخص المعنوي وما شجر عليها من خلاف وانما يكفينا أن نقول في هذا الصدد ان وقف العين يخرجها عن ملك الواقف ويكسبها شخصية مستقلة متميزة عن شخصية الواقف والناظر والمستحقين حتى ولو كان الناظر هو المستحق الوحيد في الوقف أو كان الواقف قد شرط لنفسه الشروط العشرة لان ذلك لا يغير شيئا من حكم القانون الناشئ عن وقف العين

ويترتب على اعتبار الوقف كائنا معنويا مستقلا عن شخصية الناظر والمستحقين نتائج غاية في الاهمية لا ندعي القدرة على حصرها في هذا المقال وانما نجتزئ بالكلام على أكثرها أهمية عملية وهي جنسية الوقف حتى تحدد المحكمة التي يتقاضى أمامها وتمثيل الوقف حتى تتعرف طريقة النيابة من جهة الوقف والمستحقين

الكلام على جنسية الوقف

يترتب على اعتبار الوقف كائنا معنويا ذا أهلية قانونية أن تكون له جنسية . فما هي العوامل التي تحدد جنسية الوقف ؟

جرى الفقه المصري وقضاء المحاكم الاهلية والمختلطة على اعتبار جميع الاوقاف المنشأة في القطر المصري سواء كان الواقف أو الناظر أو المستحقين أجانب تابعين لدول متمتعة بالامتيازات ورتبوا على ذلك أن الدعاوى التي ترفع من الاهالي على الوقف ان ترفع منه على الاهالي تكون من اختصاص المحاكم الاهلية

ونحن نسوق — اثباتا لذلك — المراجع الآتية

١) حكم محكمة الاستئناف المختلطة الصادر بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٢٤ ومنشور بالمحاماة السنة الرابعة ص ٤٧١ وقد جاء فيه (الوقف شخص أدبي خاضع لقوانين البلاد الموجودة فيها أعيان الوقف وشخصية الوقف مستقلة تمام الاستقلال عن شخصية الناظر وشخصية المستحقين فاذا أنشأ الواقف وقفه في مصر عن أعيان موجودة في مصر كان الوقف مصريا والدعاوى التي ترفع منه على الاهالي أو من الاهالي عليه تكون من اختصاص المحاكم الاهلية ولو كان الناظر تابعا لدولة أجنبية أو كان المستحقون كلهم أو بعضهم من رعايا دولة أجنبية)

٢) حكم محكمة الاستئناف المختلطة الصادر بتاريخ ٧ مارس سنة ١٩٢٢ ومنشور بالمحاماة السنة الثالثة ص ١٤٧ وقد جاء فيه (لا تأثير لانتماء الناظر لدولة أجنبية في تحويل الاختصاص للمحاكم المختلطة اذا كان الواقف وطنيا وانما العبرة في الاختصاص بجنسية الشخص المعنوي الذي يمثله الناظر)

٣ — تراجع الاحكام المنشورة في كتاب قضاء المحاكم في مسائل الوقف للاستاذ عزيز بك خانكي من نمرة ٢٦٤ ويراجع كذلك حكم محكمة الاستئناف المختلطة الصادر بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٩٢٧ ومنشور بمجلة المحاكم المختلطة السنة ٣٩ ص ٣٥٧)

نخرج مما تقدم بأن مبدأ تبعية الاوقاف المنشأة في القطر المصري للجنسية المصرية هو مبدأ مقرر فقهاء وقضاء انما ماهو التعليل العلمي الذي تستند اليه المحاكم والشراح في تقرير هذا المبدأ ؟

لقد شكا الاستاذ عبد السلام بك ذهني في حكم أصدرته دائرة محكمة الاستئناف العليا رئاسته من أن أهل الفقه في مصر يرون من غير أدلاء بتعليل علمي ان الاوقاف في ذاتها وهي الاوقاف المدنية والمحلية انما هي أشخاص وطنية معنوية من حيث الاختصاص

(يراجع حكم محكمة استئناف مصر الاهلية الصادر بتاريخ ٢٩ مايو سنة ١٩٢٧ بمجلة الحقوق السنة الثانية العدد الاول ص ٨١

ولقد ذهبنا نراجع المجموعات الفقهائية فاذا الاستاذ ذهني بك محق في انتقاده واذا جميع الاحكام تقرر المبدأ وتغفل تقرير التعليل العلمي

ولكن طول البحث جعلنا نظفر بتعليلين

الاول — قضت محكمة الاستئناف المختلطة بحكمها الصادر في ٤ ابريل سنة ١٩٢٢ ومنشور بمجلة المحاماة السنة الثالثة ص ١٤٨ (أن انتماء الواقف للدولة أجنبية لا يؤثر في تعيين الاختصاص حتى ولو كان هو الناظر والمستحق الوحيد وكان حافظا لنفسه الشروط العشرة وانما يتعين الاختصاص بجنسية جهة الوقف والوقف من الانظمة الخاصة بمصر)

فكأن المحكمة اعتمدت في اعتبار الاوقاف التي ينشئها أجانب في القطر المصري مصرية الجنسية استنادا الى أن الوقف نظام خاص بالقطر المصري مستمد من الشريعة الاسلامية ليس له نظير في القوانين الاخرى وفي اعتقادنا ان هذا التعليل لا يقنع الباحث لانقطاع الصلة بين الوقف باعتباره نظاما اسلاميا وبين جنسية جهة الوقف التي تتبع جنسية البلد المنشأ فيها

الثاني — ذكر المرحوم الاستاذ أبو هيف بك في كتاب القانون الدولي الخاص ص ٦٦ ان اعتبار الاعيان الموقوفة في القطر المصري مصرية الجنسية وجعله تشبهها بالشركات التجارية التي تتبع جنسية البلاد التي أنشأت فيها طبقا لقوانينها وهذا تعليل داخلي سليم خصوصا اذا أضيف اليه أن انشاء الوقف هو بمثابة ولادة شخص معنوي قانوني اذا صح هذا التعبير وهذا يستتبع أن يتخذ جنسية البلاد التي ولد فيها

الكلام على تمثيل الوقف

قلنا أن الوقف شخص معنوي ذو أهلية قانونية . وهذا يستتبع ضرورة وجود شخص آخر حقيقي تتركز فيه شخصية الوقف فيعبر عنها بمختلف التصرفات كادارة اعيان الوقف والصرف على المستحقين وأرباب الشعائر والدفاع عن الوقف أمام القضاء الخ

هذا الشخص هو الناظر الذي قد يعينه الواقف وقد يعينه القاضي وقد يكون شخصا واحدا وقد يكون هيئة تضم عدة أشخاص ينفرد بعضهم بالعمل أو لا ينفرد أحد منهم عن الآخر

ولقد قضت محكمة الاستئناف المختلطة أن حق تمثيل الوقف قاصر على الناظر بصفة مطلقة فليس للواقف نفسه — حتى ولو كان المستحق الوحيد — أن يتدخل في نزاع قضائي يمس مصالح الوقف الا اذا كان ناظرا عليه

(حكم محكمة الاستئناف المختلطة الصادر في ٤ ابريل سنة ١٩٢٢ ومنشور بمجلة المحاكم المختلطة السنة ٣٤ ص ٢٩١)

اذا تقرر ما تقدم فلنبحث الى أي حد يمثل الناظر الوقف والمستحقين

جرى قضاء المحاكم على أن الناظر يمثل جهة الوقف والمستحقين . فهو الذي يدير الاعيان الموقوفة ويرفع الدعاوى سواء ما تعلق فيها بالاعيان الموقوفة أو بالريع الناتج منها (حكم محكمة الاستئناف المختلطة الصادر في ٤ نوفمبر سنة ١٩١٤ وحكمها الصادر في ٤ يناير سنة ١٩٢٢ ومنشورين في كتاب تعليقات على القانون المدني المختلط للاستاذ جبرائيلي بطوروس ص ٣٩٢ نبذة ١٩٩)

وفي اعتقادنا أن المسألة ليست على اطلاقها وانه تحت حدود لنيابة الناظر عن الوقف والمستحقين يجب تقييدها قال الفقهاء أن الناظر وكيل عن جهة الوقف لا تتعدى وكالته الاعمال المتعلقة بالادارة (كتاب الوقف للكلاعلي جزء ٢ ص ٣٦ نبذة ٢٤٩) فاذا تصرف في احدى الاعيان الموقوفة أو رتب للغير حقا عينيا كرهن أو حق انتفاع وقع تصرفه باطلا لانه خارج عن حدود ولايته القاصرة على الادارة

هذه هي حقيقة وكالة الناظر عن جهة الوقف

البقية على صفحة (١٣)

السياسة - الجمعة جمادى الثانى سنة ١٣٥١ - ١٧ اكتوبر سنة ٣٢

ملحق للعدد (٢٩٢٥)

السياسة

يومية

لسان حال الاحزار الدستورية

دار الجريدة بشارع المناخ رقم ٣٠ تليفون رقم ٥٩٨٧٢

صاحب السياسة : محمود عبد الرازق باشا

رئيس التحرير المسؤول : ابراهيم عبد القادر المازنى

تكون المراسلات باسم مدير السياسة

الدكتور محمد حسين هيكل بك

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

داخل القطر خارج القطر

الاشتراكات تدفع مقدما عن سنة ١٥٠ قرش ٢٢٠ قرش

« « عن نصف سنة ٨٥ « ١١٠

ASSIASA - Quotidien Egyptien

30, Rue Manakh, Le Caire

Téléph. 59872

جماعة نشر الثقافة

بالاسكندرية

نشأت فكرة الجماعة بين طائفة من نخبة أدباء الاسكندرية راعهم ما لحظوا بين ظهرانى مدينتنا من تفتيت الادباء وتنافر شملهم حتى كاد أن يتهم هذا البلد الامين بأنه خلو من الادب والادباء . ورأوا حولهم أن الصدور مقفرة الا من روح المادة . والنفوس مقوية الا من شواغل التجارة والوظيفة . وكان قضاهم وزدوجا بجرأتهم على النهوض الى تحقيق الفكرة على الرغم مما يعترض المجتمع أمثالها من الجمود والفتور

غير أنهم طاعوا عامل الايمان الراسخ وأهابوا باخوانهم فى هدوء وطأنينة فاذا كلنا منضوون تحت لوائهم واذا بالجماعة ، ؤلفة وبالفكرة تخفق بها القلوب وتهتز لها النفوس . فهذه الجرأة الادبية البائنة حرية بالثناء لو أننا فى موقف الثناء .

غير أنه لا يفوتنا أن نسجل لهؤلاء الافاضل يدهم البيضاء ونسأل لهذه الفكرة أن تنمو وتأتى ثمارها

* * *

كان أول غرض من تأليف الجماعة أن تشهد الاسكندرية أن بين أبنائها من هم أهل للقيام بأكبر المشروعات الادبية فلا تبقى دون الكثير من المدن العربية عاطلة من جماعة أدبية ترى رأيا وتعمل عملا .

فالقاهرة حافلة بالمعاهد العلمية والاندية الادبية والنشرات الدورية القيمة وميدان الثقافة فيها فسيح المجال مزدهر بالنوابغ والافذاذ .

بل ان هناك كثيراً من حواضر سورية وفلسطين والعراق قد نشأت وترعرعت فيها جماعات أدبية ومجامع علمية وكلها مختطة خطة تسير عليها ولها غرض معلوم ترمى اليه . بل ان للاجانب فى الاسكندرية أندية أدبية ومعاهد علمية تنشر ثقافتهم وترفع صوتهم وتعلى رأيهم بحيث يمكن للراغب فى التأدب الاجنبى أن يختلف اليها ويصيب منها . وقد كادت الاسكندرية أن تظهر بمظهر البلد الاجنبى الذى لا يمت الى القطر المصرى بصلة لولا اللغة التى تتداولها وبعض العادات التى ألفتها . وما قولك ببلد مصرى عربى سكانه ينيفون على نصف المليون من الشرقيين تصدر فيه صحيفتان عربيتان فقط ولا تنشر فيه مجلة عربية واحدة ؟ ..

هذا مع الاسف نصيب العاصمة الثانية للبلاد من الثقافة العربية

* * *

لا نزعم اننا اليوم سددنا هذا الفراغ بتأسيس جماعة لنشر الثقافة ولكننا نقول اننا خطونا خطوة كبيرة نرجو أن نوجهها الى ما فيه خير البلد والى الظهور بمظهر الكرامة القومية وحسن الرغبة فى السير الى الامام والعمل الجد وليس أدل على افتقار الاسكندرية الى مثل هذه الجماعة من سرعة انتشارها ووفرة الاقبال عليها والتشجيع الصادق الذى صادفته لدى جميع الطبقات من هذه الامة الكريمة وبخاصة لدى صحفها اليومية التى فتحت لها صدرها رحيبا ورعتها باصناف الرعاية والحض على العمل المنتج

ذلكم الغرض القريب الذى أنشئت له الجماعة ولكنه ليس بالغرض الاساسى الصحيح لان غرضها الصحيح انما هو نشر الثقافة فى المجتمع المصرى

وقد اختصت الجماعة بالثقافة دون غيرها لان العلم البحت جاف بعض الشىء وبيئتنا المصرية لا تسيغه صرفا . كما أنه لا غضاضة علينا اذا كانت هذه البيئة لم تنشأ تنشئة علمية بحتة ونحن بعد فى طور التكوين والتثبت من الوجهة العقلية .

ولا يزال العلماء بيننا أفراداً يحصرهم العدد ولا يعوز الباحث عنهم كبير عناء للاهتداء اليهم .

أما الفن فغاض اذا نظرنا اليه فى جهة واحدة بل هو لا ينحصر فى مبادىء مقررة وقواعد ثابتة ولسنا بعد فى مستوى من الرقى الاجتماعى يسمح لنا بهذا التخصص . بقى الادب اذن وهو بمعناه الضيق محدود الغرض لكنه كبير الخطر لعلاقته المباشرة بالذوق وفى معناه الشامل يتناول الحياة على اتساعها ولا سبيل الى الاتفاق عليه

لم تبق هناك الا لفظة واحدة تتناول من كل هذا على قدر . وترمى الى كل هذه الاغراض على قدر . وتهذب صاحبها فى كل شىء على قدر . تلك اللفظة هى « الثقافة » وعليه رأت الجماعة أن تجعلها شعاراً لها وتعمل على نشرها فى المجتمع المصرى . وما الاجدال فيه ان الرجل المثقف من جهة الاخلاق خير من الرجل العالم أو المتأدب أو الفنان لان العلم والادب والفن اذا انفردت بربها قد لا تمت الى الاخلاق فى شىء وقد لا يكون لها شأن فى اذكاء الروح الطيبة فى الفرد وجعله عضواً ملائما للمجتمع الذى يعيش فيه لتنطبق طباعه على طباعه وتنطبع نفسه على نفسه .

أما الرجل المثقف فهو الرجل الذى تشمل معارفه أوسع المعانى ويذهب فى انماء ملكاته النفسية كل مذهب فيصير عقله وقلبه ونفسه كالارض المحروثة التى تهيأ للغرس وتصلح للانتاج .

وان من أول حسنات الثقافة أن توسع الذهن وتنمى العاطفة الطيبة وتبعد بصاحبها عن التعصب لرأى دون رأى وقول دون قول . وقد أخذت الجماعة على نفسها بث هذه الثقافة فى المجتمع المصرى فوجب عليها أن تبحث عن لوازم هذا المجتمع وترجع الى تاريخه وترى حاضره وتتبين شيئا من اتجاهاته ثم تقرب منه ما يصلح له . وتبعد عنه ما لا يصلح له . فتستجمع له كل ما هو خير نافع . وتدفع عنه كل ما هو فضول ضار . وما يصلح لغيره قد لا يصلح له وما يضر سواه قد ينفعه

فليست اذن ترمى فى غايتها الى اللذة العقلية وليس من مطالبها الفن للفن والادب للادب والعلم للعلم مادامت قد وفقت بين الثقافة والمجتمع هى مرغمة على الملاءمة بينهما وتخير الصالح فى هذا لذلك ومن ذلك لهذا

وفى هذه الغاية ما فيها من روح التضحية وروح الوطنية الصحيحة .

وقد آن لكل أديب ، أن يخرج من عزلته ويبقى يداً مع الجماعة لان الانانية بغيضة على كل حال والفردية آفة المجتمعات ولا خير فى رجل لا يعمل الا لنفسه ولا يستفيد الا لنفسه كأنما هو قائم بنفسه فى هذه الحياة مع انه لا يستغنى عن المجتمع لانه عضو فيه شاء أو لم يشأ وهو مدين له بما ورث من ماضيه الذى يربطه به حبل النسب بل هو كل يوم يطلب من هذا المجتمع أن يساعده ويأخذ بيده فى طريق حياته .

وان هناك ما نسميه « تضامن الاجيال » اذ ليست الامة الا مجموع أفراد أحياء يعيشون فى حقبة محدودة من الزمان ، بل هى مجموع الاجيال السالفة والحاضرة حتى المقبلة

وكل جيل حاضر مسؤول عن سلفه وعن خلفه يرفع من شأن سابقه ويأخذ عنه ويزيد فى تراثه ويترك ذلك الى لاحقه امانة فى عنقه لن يفتك نفسه منها ما خدع نفسه بنفسه

فالجماعة اليوم تواجه هذه الحقيقة وتسعى سعيها فى سبيل نفع اخوانها فى المجتمع بالاخذ عن السلف ، والتأثيل للخلف . فتستثير بالماضى لتستخلص منه عبرة الحاضر وترسم عليه خطة المستقبل .

ولا شك ان فى تضحية الفرد للجماعة جمالا بالغاً وعظة أبلغ . وفى عمل الفرد على النهوض بالمجتمع وطنية حقة بل هى الوطنية الصحيحة التى ترفع مستوى البلاد الفكرى والاخلاق .

وأى نفع للمجتمع يعادل نفع تنوير ذهنه وتوجيه عاطفته الى الغايات النفسية السامية التى تعتز بها الكرامة الشخصية وتفهم عندها الحرية فهما صحيحا وتجعل كل واحد مضارا لغيره من الذين كانوا بالامس ينعون عليه انخفاض مستواه عنهم .

وفى سبيل الوطنية الصحيحة قالت الجماعة لا دين ولا سياسة أجل انا نترك الدين لرجال الدين ونترك السياسة لرجال السياسة وقديما كان الدين وكانت السياسة من عوامل التفريق بين القلوب والنفوس .

فالجماعة تعمل عملها المنتج فى دائرة القانون بل هى تساعد القانون فى تفهيم كل فرد حقه وواجبه فتؤدى للجهتين خدمات جليلة وتكون اداة صادقة من أدوات النظام والتنظيم :

* * *

ذلكم الغرض الصحيح الذى أسست الجماعة لاجله وأخذت على نفسها أن تعمل فى سبيله وقد نظمت شؤونها تنظيما يقربها كل التقريب منه .

فالجماعة على رأسها مجلس ادارة وهى فى مجموع أعضائها مؤلفة من ست لجان الاولى للنشر والثانية للتأليف والثالثة للترجمة والرابعة للمحاضرات والخامسة للمناظرات والحفلات الادبية والسادسة للفنون الجميلة .

فتكون الجماعة اذن فى داخليتها ست جماعات مستقلة لكل واحدة منها رئيسها ومكتبها وهى تعمل فى جو يعيد عن عوامل التأثير والاحتكاك بغيرها الا فيما يردها الى مجلس الادارة الذى يشرف عليها جميعا اشراف تعديل ومعاونة للوحدة والاتزان .

وقد أسست الجماعة فى شهر فبراير سنة ١٩٣٢ وبدأت عملها باعتامها من عقد اجتماعات أدبية خاصة وعامة والقاء محاضرات سواء ما القاه أعضاؤها أو ما رضى أن يلقيه باسمها حضرات الادباء والاساتذة المناصرين للفكرة .

وشهدت الاسكندرية منذ عهد تأسيس الجماعة ما لم تشهده منذ سنوات خلت .

فلا يمضى الشهر حتى يدعى جمهور الاسكندرية الكريم الى سماع محاضرة فى موضوع من أهم الموضوعات التاريخية أو الادبية فيسارع اليها ويدل بذلك على انه متعطش الى الاستماع باللذة العقلية التى يصادفها فى مثل هذه الاجتماعات الادبية بل يدل على أن هناك نقصاً قد اكتمل وفراغا قد شغل وهذا التهافت الى سماع المحاضرات وحضور الحفلات حدا بالجماعة الى التزيد منها والتوسع فيها مما ستبدو بوادره سريعاً ان شاء الله .

وقد أعدت الجماعة العدة لبث فكرتها بوسيلتى الخطابة والرسائل .

أما الخطابة فأهم ما اتجهت اليه الآراء انشاء معهد ليلى تدرس فيه أهم فروع العلوم

(البقية على صفحة ١٦)

الشـــــاعر اقبال

شاعر الهند العظيم

المحاضرة التي ألقاها الدكتور عبد الوهاب عزام بدعوة جمعية نشر الثقافة بالاسكندرية يوم الجمعة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٢ .

ايها السادة

اقترح على بعض الاصدقاء أن أجعل موضوع محاضرة الليلة حديثا عن كتاب الشاهنامه ولكني رويت في الامر فلم استحسن التحدث عن هذا الكتاب لان حديثه طويل ولانه صار في ايدي القراء فليس لي أن اسبقهم الى الكلام عنه .

وقد آثرت ، بعد أن عدلت عن الموضوع المقترح أن أتكلم عن أمر يرجع الى الشرق فاني أحب أن أولي وجهي شطر المشرق وهذا للعصر الذي يولي الناس فيه وجوههم شطر المغرب . « ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله » .

ولعل في هذا سروراً لاخواننا الداعين الى مؤتمر للطلبة الشرقيين ؛ فاني أرى بعضهم بيننا الليلة .

حديثي الليلة عن محمد اقبال شاعر الهند العظيم سمعت في لندره منذ سنين اسم اقبال ؛ ورأيت بعض شبان الهند يلقون محاضرات في شعره وفلسفته . وسمعت الثناء عليه مراراً من الاستاذ المأسوف عليه السير توماس أرنولد ، كان يعجب به ويفخر بأنه تلميذه . ومنذ سنتين أهدى الى صديقي محمد حافظ بك الشاعر التركي الكبير ديوانا من دواوين اقبال اسمه « بيام مشرق » أي رسالة المشرق ، وهو طائفة من الشعر في موضوعات شتى تكلم فيه كثيراً عن الغرب وفلاسفته وشعرائه ، وجعله جواباً لبعض دواوين الشاعر الالماني جوته ، فطالعته كلفا به معجبا بما فيه من جمال الشعر وعظمة الفكر . ثم مر اقبال بمصر في طريقه من انكلترا الى الهند قادما من « مؤتمر المائدة المستديرة » فمازلت أرتقب لقاءه حتى رأيته في جمعية الشبان المسلمين جاء الهيا يلقي محاضرة عن أثر الاسلام في التاريخ . وكان لي الشرف اذ عرفت الحاضرين به والقيت عليهم أبياتا من شعره .

وفي هذا العام أهداني السيد أبو النصر احمد الحسيني الهندي كتابين من كتب اقبال : « أسرار خودي » « ورموز بيخودي » فطالعتهما مأخوذاً بما يتجلى فيهما من نفس عظيمة شاعرة طماحة الى العلياء .

ثم اتيح لي أن أرى أحدث كتب اقبال : « جاويد نامه » ولكن لم يتسن لي قراءته . وأعرف أن للشاعر كتبا أخرى لم أطلع عليها ولكن أردت أن اعجل بالتعريف به في مصر وفاء ببعض حقه ؛ وأملا أن يتنبه شبابنا الى شعره مترجما الى العربية . وفي شعر اقبال عظمة النفس وطهارة القلب ويقظة الانسان ليعرف نفسه والعالم الذي يحيط به .

درس اقبال في الهند ثم ذهب الى انكلترا فدرس القانون ثم الى المانيا فدرس الفلسفة ثم عاد الى الهند لم يفقد نفسه ولم يسحره ما رأى في أوربا من معرفة وزخرف ورواء رجع مفكراً متصوفا يستمد العبر من التاريخ وينبه الناس الى الحقائق التي غفلوا عنها ويزدري الغرب في كثير من مدنيته . وانما الرجل العظيم من يخلق الزمان الذي يلائمه لا من يسلم نفسه للحادثات معتذراً بتأثير الزمان . وادع اقبالا يصور هذه العظمة التي يحسها في نفسه حين يقول في كتابه « أسرار خودي » أي أسرار الذاتية ، من فصل طويل عنوانه الوقت سيف :

استمع نكتة تضيء كالدر ، لتعرف فرق ما بين العبد والحر :

العبد يتيه في الليل والنهار ، والحر يتيه في قلبه الزمان

العبد يحوك من الايام كفنا ، وينسج على نفسه النهار والليل

ولكن الرجل الحر يخلع نفسه من الطين ، وينسج نفسه على الازمان

العبد كطائر في شبكة الصباح والمساء ، حرمت روحه لذة السبح في الهواء

ولكن الصدر الحر الخفاق ، يظل قفصا لطائر الايام

فطرة العبد تحصيل الحاصل ، وواردات نفسه متاع مبتذل

هو من الكسل في مقام واحد ، ولفتات صباحه ومسائه لا تتبدل

ولكن عمل الحر خلق جديد كل حين ووتره يسكب لغات محدثة كل آن

فطرته لا يثقلها التكرار ، وليست طريقه حلقة البركان

سلسلة العبد الايام ، ؛ وهجيراه كلمة القضاء (والقدر)

ولكن همة الحر مشيرة على انقضائه ، ويده تصور الحادثات (كما تشاء) الخ

ثم يقول بعد أن تعمق في تفسير الوقت : هذا الكلام بريء من الصوت والصدى ، لا يحيط به الادراك

قلت وكلماتي خجلة من المعاني ؛ ومعاني شاكية من الكلمات

مات المعنى الحي حين احتواه الحرف ، وخبت أناره بانفاسك

كذلك يصور اقبال الرجل الحر الذي يأبى على القيود ، ويربأ بنفسه أن تكون ظل الحادثات لا تملك لها خلقا ولا رداً .

وأما شعور اقبال بمكانته في الشعر ؛ واحساسه بالفيض الذي يجيش من عالم الغيب في قلبه ؛ والنور الذي يبصر من وراء الحجب في ثنايا نفسه لتنيرها فتنير للناس الطريق في هذا العالم المكهرب فيتجلى في فاتحة كتابه أسرار خودي :

قطعت الشمس المنيرة طريق الليل ، ونثر بكائي الماء على صفحات الورد

وغسل دمعي النوم من عين النرجس ، واستيقظ المرج من ثغاني

وامتحن البستاني قوة كلامي ، فزرع مصراعا وحصد سبعاً

زرع في المرج حبات دمعي ، ونسج نسيجاً من تحيتي والازهار

... ان طيني أضوأ من جام جم (١) عارفة بما لم يولد في هذا العالم :

قد قنص فكري الظبي ، الذي لما يثب من العدم

وازين بستاني بالحضرة التي لم تنبت ، وفي حجري الورد الذي لا يزال في ضمير الاغصان

أهجت محفل الغناء ، وضربت على وتر من أعصاب العالم

وكم صمت من قبل هود فطرتي ، حتى لم يدر جليسي نغمتي

أنا في العالم شمس حديثة الميلاد ، لم أر رسوم الفلك

ولم تضطرب النجوم من ضوئي

ولما يرقص ضيائي على صفحات البحار ، ولا صبغت حنائي متون الجبال

... جاء صبحي من الشمس قشق الليل ، وسقط على ورد العالم ندى جديد

أنا نغمة لا أبالي المضراب (٢) أنا غناء شاعر الغد

عصري غير خبير بالاسرار ، ويوسفي (٣) ليس من أجل هذه السوق

أنا يائس من الاصحاب القدماء ، وها هو طوري يشتعل ليأتي الكليم (٤)

بحر الاصحاب صامت كالقطرة ، ولكن قطرتي كالبحر تحمل طوفانا

ان نغمتي من عالم آخر ، وان لهذا الجرس قافلة أخرى

كم من شاعر ولد بعد الموت ، أغمض عينيه وفتح عيوننا

خرج من العدم مرة أخرى ، ونبت من تراب قبره كالورد

ان تكن القوافل قطعت هذه الصحراء ، قليلة الضوضاء كاخفاف الابل

فانا عاشق ؛ الصباح ايماني ، وضوضاء المحشر طوع أمري

نغمتي ليست في وسم الوتر ، ولست أبالي أن ينكسر عودي

لا يسع النهر بحري ، ولا بد من بحار لطرفاني

ان البرعمة التي لم تنظم حتى صارت بستانا ليست كغفا المطر ربيعي . كم من برق نائم في روحي ؛ وما الجبل والصحراء الا باب جولاني تعلق ببحري ان كنت صحراء ؛ وعمك ببرق ان كنت سيناء . لقد منحت ماء الحيوان ، وجعلت محرم أسرار الحياة .

---

(١) جام جم اي كأس جمشيد وهو كأس خرافي كان ينظر الملك فيه فيرى الاقاليم السبعة

(٢) المضراب العود الذي يضرب به على الوتر

(٣) اشارة الى قصة بيع يوسف بن يعقوب

(٤) اشارة الى قصة موسى

وقد حيت الدرة من حرقة خنائي ففتحت جناحا وانقلبت يراعة (١) ماحدث أحد بالسر الذي أحدث به ، ولا نقب درر المعاني مثل فكري ، ان ترد مر الحياة الخالدة فهلم الى ؛ وان ترد السماء والارض فهلم الى . ان مرشد السماء أوحى الى بهذه الاسرار ، ولا يستطاع كتمان السر عن الندماء . أيها الساقي هلم واملأ الكأس خمراً ، وامح من القلب عراك الايام ان شعلة الماء التي أصلها زموم تجعل الفكر أقوى انتباها وتردي العين اليقظى أكثر يقظة

وتمنح جلال الجبل للحصاة ، وقوة الاسد للثعلب

وتعبو الثرى أوج الثريا ، والقطرة سعة البحر

وتبعث في الصمت هياج المحشر ، وتجعل رجل الحمامة مخمرة من دم الصقور .

قم واسكب في كأسي شرابا صافيا ، واصبب على ليل فكري ضياء القمر

حتى أهدي الضال الى المنزل ؛ وأمنح النظارة لذة الاضطراب والحرقة . »

ثم يبين اقبال أن فلسفته مستمدة من جلال الدين الرومي الشاعر الصوفي فيقول

اقرأ من فيض مرشد الروم ، دفتر ابختوما على أسرار العلوم

ان روحه مملوءة بالشعل ، وانما أنا ضوء النبعث من نفس واحد ، كالشرر

ان المرشد الرومي قلب التراب اكسيراً وصور من غباري صورا

فتلك ذرة من تراب الصحاري تتأهب لتقبض على شعاع الشمس

أنا موج أقيم في بحره لاظفر بالدرر المتلألئة

أنا الذي أسكر من خمره وأحيا بانفاسه .

ثم يقول انه سهر الليالي مفكراً مناجيا كئيبا حزينا فنام فرأى جلال الدين يقول له كلاما منه .

حتام تصمت قالا كام ؟ أنشر رائحتك في الآفاق كالورد .

... وابث هذا النوح الصامت مصلصلا كالجرس من كل أجزاء بدنك . أنت نار فأضئ محافل العلم . واحرق الآخرين بحرقتك

بلغ كالناي رسالته عن الغاب ؛ وحدث قيسا عن حي ليلى .

.... قم فهب كل حي روحا جديداً ، وزد الحي حياة بصيحتك

قم فاسلك سبيلا أخرى ؛ وافرغ قلبك من الهوى القديم اعرف لذة القول ، واستيقظ ياجرس القافلة .

(يصف أثر هذا القول فيه ثم يقول)

فرفعت الحجاب عن سر الذاتية وأظهرت سر اعجازها .

كانت صورة وجودي ناقصة ذميمة حقيرة ممطلة

فانحنى على العشق بمبرده فاستويت انسانا عالما بكيف العالم وأمكه

فرأيت حركة أعصاب السماء ؛ وابصرت دورة الدم في عروق القمر

---

(١) اليراع ذباب يطير بالليل كانه نار

كم بكيت ليالى من أجل الانسان ، حتى مزقت الستر عن أسرار الحياة وأخرجت من مصنع الوجود سر تقويمها

ثم (يصف صلته بالامة الاسلامية فيقول

أنا الذى أبرزت هذا الليل فى زينة النهار — ترياق قدم الملة البيضاء

أمة نثلتها ملء الجفنات والمروج ، وما فناؤها المجدد الا ثيران القلوب

زرعت الذرات وحصدت الشموس وأخرجت مئات رومى وعطار

أنا آهة حارة أسمو فوق السماء ، وان كنت دخانا فانا من نسل هذه النار

هكذا يذهب اقبال مذهب الصوفية . ولذلك نجده يدعو الى مايسميه العشق ويرى كما رأى من قبل سنائى والعطار وجلال الدين أن العشق أقدر على النفوذ الى ماوراء الحجب وان العقل محدود بعالم الحس . يقول اقبال :

ان عشق المخاطر يحتضن النار ولكن حكمتى الخفرة لاتنبعث منها شرارة واحدة .

ويقارن بين ابن سينا وجلال الدين الرومى فيقول : « ان ابن سينا ضل فى غبار الناقة ، وأمسكت يد الرومى بستر الهودج . هذا غاص حتى ظفر بالدر ، وذاك طفا مع الغثاء . »

وكذلك يقارن بين الرومى وهيكل الفيلسوف الالمانى فيقول :

كنت ليلة أحل عقد الحكيم الالمانى ، ذلك الذى يحجل العالم من ضيقه بجانب سعة فكره : فلما توغلت فى بحره صارت سفينة العقل طوفانا . ثم أخذنى النوم فأغمضت عينى عن الفانى والباقى . فصارت عين الشوق أحد بصراً فيخلى المرشد الأعلى الشمس التى تضىء الآفاق بتجليها . والشعلة التى أنارت بيداء العالم المظلم مصباح الهداية . . فقال لى :

قم أيها النائم انك تجرى السفينة فى سراب . أنسلك سبيل العشق بالعقل ؟ انك اذاً تفتش عن الشمس بمصباح » :

وهذه المحاورة بين العلم والعشق تبين عن علاقتهما فى رأى اقبال .

العلم

نظرتى اخترقت السبع والاربع ، والزمان أسير حبائلى ، وقد فتحت عينى على هذه الناحية من السماء فليس لى فيما وراء السماء مطلب ، تقطر مئات النغمات من الموسيقى التى لدى . وأرمى على أعين الناس كل سر عندى .

العشق

البحار من سحرك مشتعلة ، والهواء يرمى بالنار والسموم ، حينما كنت صديقى كنت نوراً فلما فارقتنى صار نورك ناراً . أجل ولدت فى خلوة اللاهوت ولكنك وقعت فى حبالة الشيطان . هلم فاجعل هذه الارض بستاناً ، وأعد شباب الدنيا العجوز . هلم نخذ ذرة من آلام قلبى واجعل ماتحت السماء جنة الخلد . نحن نديمان منذ الخليقة ، ونحن وتران لنغمة واحدة .

* * *

فهو انما يذم العقل الذى تسخره الشهوات والذى يحرم نور الايمان ولذة السلام والمحبة . ومن أجل ذلك يقول فى موضع آخر :

طوبى لهذا العقل الذى عرضه الدنيا والآخرة والعقل الذى فيه نور الملك وحرقة قلب الانسان .

ومن أجل هذا يذم اقبال المدنية الحاضرة على كثرة ماخلقت من معجزات . وفى كتابه (بيام مشرق) سماه قسم (نقش فرنك) يصف فيه المدنية الاوربية بأنها تنير العقل ولاتحيى القلب ويقول عن جمعية الامم :

لم أر من قبل جماعة من سراق الا كفان ألفوا جماعة لتقسيم القبور .

وهو فى هذا الكتاب يعرض لكثير من فلاسفة الغرب وشعرائه فيمدح بعضا ويذم بعضا . وهو معجب بالشاعر الالمانى جوته وقد جعل كتابه (بيام مشرق) جوابا لبعض دواوين ذلك الشاعر . وهو معجب كذلك بهيجل ولكنه يقول عنه : آمن قلبه وكفر عقله . وهو يعترف بأن علماء الغرب زادوا عقله ولكن انارة صدره كانت من صحبة أرباب القلوب .

***

العلم وحده لايخلق الانسان . لابد من قلب ، من غيرة ، من ايمان ، من محبة وحرقة : العلم يستوى عنده الانسان والحجر والسعادة والشقاء ولكن العشق هو النار الالهية التى تشتعل فى قلب الانسان فتسمو به عن حضيض الدنايا وتملؤه نوراً وايمانا وسكينة ومحبة : يحدثنا اقبال بهذه المحاورة بين الارضة والفراشة الخ ..

سمعت ليلة فى مسكنى الارضة تقول للفراشة : سكنت فى كتب ابن سينا ورأيت كثيراً من كتب الفارابى . ولكنى لم أفهم حكمة الحياة . ولا يزال يومى مظلما لا شمس فيه . قالت الفراشة : انك لا تجدين هذه النكتة فى كتاب . انما الخفقان يجعل الحياة أحيى ، انما الخفقان يهب الحياة أجنحة .

ويقول فى أسرار خردى .

ان العلم الحاضر حجاب عظيم . هو ناحت الصنم ، وعابده وبانيه ، محبوس فى سجن المظاهر لم يخلص من حدود الحس ولكن من أجل ذلك زلت قدمه فى طريق الحياة ووضع الخنجر على حلقه . ان له ناراً ولكن كالشقائق باردة وشعلة ولكن كقطرات الندى هامدة . بقيت فطرته بعيدة من حرقة العشق وظل فى عالم الطلب كئيباً .

ويقول فى بيام مشرق :

أيها الطالب فى المدرسة معرفة وأدبا وذوقا ان أحداً لا يشرب الخمر فى مصنع الزجاج . قد زاد فى عقلى درس علماء الفرنج ، وأنارت صدرى صحبة أرباب القلوب . أستخرج النغمة التى هى أصل مائك وطينك ، أيها الذى ضل عن نفسه أخل نفسك من نغمات الاخرين . »

وكذلك يدعو اقبال فى كتبه الى ايقاظ النفس ، واخراج كل ما فى قراراتها من مواهب وينهى عن الركون الى الاقوال والكتب . ويرى اقبال أن لابد من أن يسير العالم سيرة أخرى : يقول :

لقد آن لنا أن نسن سنة أخرى جديدة ، وأن نفصل لوح القلب كله ثم نكتبه كرة أخرى .

وكأنه ينبىء بتغير فى هذا العالم ، ويرى أن المستقبل مصور أمامه وأن كل خفى يتجلى لروحه :

أنا فى هذا التراب القديم أرى جوهر الروح وأرى كل ذرة ناظرة كالنجم

والجنة لاتزال فى صدر الأرض أراها أغصانا متفرعة ناضرة مثمرة .

وأرى الجبل خفيفا كالحصاة والحصاة ثقيلة كالجبل

وأرى النقلابا لايسعه ضمير الافلاك . ولا أدرى كيف أراه .

طوبى للرجل الذى يرى القارس فى ظلام النقع ، ويرى جوهر النغمة فى ارتعاد الوتر .

الحياة فى رأى اقبال

قد يتوهم السامع أن اقبالا الروحى المتصوف رجل مستكين مستسلم قد ألقى زمامه للحادثات وأحال كل شىء على القضاء والقدر . كلا . اقبال يرى أن الحياة جهاد مستمر لا هوادة فيه ، وأن سكون الجهاد موت ، وأن مباشرة الاهوال والتعرض للاخطار يزيد الحياة قوة ، وان الحياة فى البحر والموت على الساحل .

يقول :

شكا غزال لآخر آلام قلبه وقال : سأتخذ من بعد كناساً فى الحرم . فان الصيادين يكمنون فى كل مكان ، وليس لنا قرار بالليل أو النهار . أريد أن آمن شر الصياد وأن أفرغ قلبى من الهموم

قال له رفيقه : أيها الصديق العاقل ، ان أردت الحياة فعش فى خطر . حك نفسك بالمسن كل حين ، وعش أحد من السيف القاطع . ان الخطر امتحان القوة والشهامة ، ومعيار الجسم والروح .

ويروى اقبال ان شابا ذهب الى الشيخ على الهجويرى وشكا اليه احاطة الاعداء به فقال له الشيخ : أيها الغافل عن أسرار الحياة ، فرغ قلبك من الغم ، وأيقظ قواك النائمة ان لاعدائك فضلا عليك أن يثيروا همتك . ان العزم القوى يذيب العقبات . وهل يبالى السيل فى طريقه بالنجد والغور . ان حجر الطريق يصير مسنا لسيف العزيمة ، ماذا يجدى عليك أن تأكل وتستريح كالحيوان ؟ ان لم تكن قويا فى نفسك فما بقاؤك فى الدنيا ؟

وقد ضرب اقبال مثلا قصة الطائر العطش وخلاصتها ان طائراً أجهده العطش فرأى من بعيد حبة متلألئة حسبها قطرة ماء فطار اليها وأعمل منقاره فاذا هى ماسة صلبة فذهب عنها يقلب عينيه بين السماء والارض فبصر بقطرة على غصن فالتقطها . يقول اقبال ينبغى أن يكون الانسان فى هذه الحياة مضيئا صلبا كالماسة لايروى الناس غلتهم بابتلاعها ، لا كالقطرة المائعة يلتقطها كل طائر الخ

والغاية أو الامل أو المقصد روح خفية فى العمل ، وبه تتصور الاعمال ، وانما يسرعه دوران الدم فى أعصابنا من أجل بلوغ المقصد وبناره تشتعل الحياة الغاية مضراب لموسيقى الحياة ، وهى المركز الذى يجذب اليه كل قوة . هو الذى يحرك أيدى الناس وأرجلهم ، فليجعل الانسان كلفا بمقصوده ، وليطف حول هذا الشمع كالفراشة . وهل تاه قيس فى الصحارى الا ابتغاء محمل لبلى . واذا غفلت عن الغاية لحظة واحدة فقد بعدت من المنزل مائة فرسخ .

ويقول كذلك :

بالامل تبقى الحياة ، ويجرسه تسير قافلتها . الحياة مضمرة فى الطلب ، وأصلها مستكن فى الامل . أحى الامل فى قلبك حتى لايصير ترابك قبراً . الامل روح العالم ، هو مودع فى فطرة كل شىء . ومنه ترقص القلوب فى الصدور . القلب يحيى بنار الامل فاذا فرغ من خلق الآمال فقد مات الخ الخ .

لايستطاع فى محاضرة واحدة الكلام عن شعر اقبال وآرائه ، أو محاولة ترتيب أفكاره وبيان مبدئها ومنتهاها ، وانما أردت أن أعرض صفحات من كتب اقبال ، وحسبى الآن أن أذكر كتابين جليلين مما فيهما شعره الى الغاية وأبان فيهما عن رأيه فى الذاتية ، واللاذاتية أراد أن يبين فيهما الذات وكيف تجب تقويتها واستخراج مواهبها . وبين مواطن التجرد من الذات وكيف يلتئم الفرد والجماعة .

وفى الكتاب الاول (اسرار الذاتية هذه الفصول : حياة الذاتية من تخليق المقاصد الذاتية تستحكم بالمحبة — الذاتية تضعف بالسؤال — نفى الذاتية من مخترعات الامم المغلوبة (وفى هذا الفصل ضرب مثلا قصة الغنم التى عدت عليها الآساد فلما ضاقت ذرعا بالحياة احتال خروف منها فتغلب ودعا الآساد الى ترك أكل اللحم والافتراس ومازال يعظها حتى قبلت دعوته فتحولت عن طباعها فكان فى هذا التحول هلاكها ، وكذلك يبين أن افلاطون كان على مذهب هذا الخروف ، وأن أراءه أساءت الى المسلمين — حقيقة الشعر واصلاح الادبيات الاسلامية — تربية الذاتية ثلاث مراحل . الطاعة وضبط النفس والنيابة الالهية — تسلسل حياة الامة من محافظتها على سننها .

ومعظم فصول الكتاب الثانى رموز بنجودل (رموز اللاذاتية) تحت هذه العناوين معنى ارتباط الفرد والامة — أركان الامة الاسلامية التوحيد (وبين فى هذا الفصل أن اليأس والحزن والخوف أمهات الخبائث وان التوحيد يشفى من هذه الامراض ويروى قصة على السلطان عالكير اذ خرج الى الصيد مبكراً ثم راقه منظر البرية فشرع يصلى وبينما هو فى صلاته بغته أسد فقابله السلطان بضربة خنجر قضت عليه وعاد الى صلاته) والركن الثانى الرسالة وغاية الرسالة المحمدية تحقيق الحرية والاخوة والمساواة بين البشر وذكر فى هذا الفصل قصة السلطان مراد اذا أمر بقطع يد المعمار الذى بنى له المسجد ، فاستمدى المعمار القاضى وحكم القاضى بالقصاص ولم يسع السلطان الا أن يمد يده للقطع لولا أن عفا المعمار — الأمة الاسلامية قائمة على التوحيد والرسالة فليس لها نهاية زمانية ولامكانية — حياة الامة فى حاجة الى مركز محسوس ، والحرم مركز الأمة الاسلامية — الجماعة تتحقق بالسعى الى مقصد — الأمة كالفرد لاتكمل حياتها الا بالشعور بالذاتية وهذا الشعور يتولد ويكمل من حفظ تاريخ الأمة — الأمومة —

هذه عجالة عن محمد اقبال أرجو أن يتبعها حين تتاح الفرصة بحث مفصل فى شعره وترجمة كثير من منظوماته فما أحسب شاعراً فى هذا العصر يسمو شعره بالنفس ويعرج بها الى المعالى ويحفزها الى العزة والعظمة والمجد والجهاد كشعر اقبال . وما أحوج شبابنا اليه فى هذا العصر

حفلة ذكرى ابن خلدون بدار نشر الثقافة

لمناسبة مرور ستة قرون على وفاته

ابن خلدون (الرجل)

كلمة الاستاذ صديق شيبوب عضو الجماعة

فى حفلة ذكرى ابن خلدون

بمناسبة مرور ستة قرون على مولده

الموضوع الذى أكلفت بعرضه على حضراتكم هو تحديد الرجل فى العلامة الكبير ابن خلدون ؛ ويتناول حياته وأخلاقه وأدبه بحيث يكون هذا البحث مقدمة لما سيتحدث به الى حضراتكم خطباء هذه الحفلة

ولا بد قبل الحديث عن الرجل من الالمام بعصره الذى نشأ فيه ؛ والانسان ابن زمانه ومحيطه ، وهيهات أن يجد سبيلا للخلاص من أثر هذا أو ذاك فى حياته الخاصة أو ثقافته العامة .

١ — حالة العصر

ولد ابن خلدون ونشأ وتثقف وقضى القسط الاوفر من حياته فى القرن الرابع عشر من التاريخ المسيحى أو القرن الثامن للهجرة ؛ وهو الدور الذى يسموته حادة فى تاريخ آداب اللغة العربية بطور الانحطاط .

أجل زالت الخلافة عن العرب منذ أواسط القرن السابع ودخل التتر بغداد أم المدائن العربية ، وأعملوا فيها قتلا وتدميراً ؛ وفتكوا بآخر خلفاء بنى العباس المستعصم بالله ؛ وأحرقوا قصور الخلافة ؛ وكانت شامخات ؛ ودمروا دور العلم ؛ وكانت عامرات ؛ وطرحوا نفائسها المصنفة فى دجلة فكانت للرجالة والفرسان ممرا وجسوراً ، فأقوت مغانى العلم وانتثر عقد العلماء . وكان الوهن قد دب دبيبه الى جسم الممالك العربية من قبل ؛ فدالت دولة بنى أيوب فى مصر وقامت مقامها دولة الاتراك والمماليك ، وتقوض صرح الخلافة فى الاندلس فسطا على الدولة العربية فيها البربر من جهة والاسبان من جهة أخرى فقوضوا دعائمها ؛ ونثروا تلك المملكة القوية الى دويلات همها دفع الغارات واخماد الثورات والمحافظة على الاجزاء الصغيرة المتناثرة التى بقيت لاولئك الامراء .

وزال بزوال دولة العرب وملوكهم مجالس الادب التى كانت عامرة بالشعر والشعراء والعلم والعلماء ، وأصبح هؤلاء ولا ملك ينتسبون اليه فيجزل عطاءهم ، ولا أمير تهزه أنغام الشعر ومرسيقاه فينثر عليهم الدنانير ، فاضطر كل واحد الى كسب عيشه كما يستطيع ؛ فوقفت الهمم ونخاذلت العزائم وزال عصر الوضع والاستنباط والتعريب والتأليف ؛ واعتاض الامراء والملوك عن الشعر والادباء برجال العلم والدين لانهم كانوا بحاجة اليهم للقضاء والافتاء ، واستهواء العامة وحملهم على الطاعة والخلود الى السكون ورغبوا اليهم فى التأليف فى سياسة الدولة وضبط قوانينها ونظاماتها استعانة بهذه الابحاث فى ادارة الشؤن العامة .

على أن لهؤلاء العلماء فضلا على اللغة يجب أن نذكره لهم فلولا جهودهم المتواصلة وتآليفهم التى جمعوا بها شتات اللغة واخبارها لاصبحنا اليوم ولا نعرف عن تاريخ العرب وادبهم شيئاً كثيراً

رأى هؤلاء العلماء ما أصاب التآليف العربية من ويلات اذ أغرق التتر كنوزها الدفينة فى خزائن بغداد ردور كتبها فى نهر دجلة ، واسلم الاسبان الكثير مما وجدوه منها فريسة للنار ، ورأوا كذلك أن الكتب التى سلمت تمتد يد الفساد ويعمل البلى عمله الهادم فى أوراقها فتمتار ويعجز أصحابها عن استنساخها لغلاء النفقة فوجهوا عنايتهم للجمع والتلخيص والتعليق على بقية الدفائن النفيسة التى لم يعبث بها الدهر

وكانت قليلة نادرة « لا تجىء هل جمل واحد » كما يقول السيوطى فى شىء من الغلو ، ولكن الوصول اليها كان صعبا على كل حال .

ويجب أن لا ننسى أن هذا الطور الذى نتحدث عنه من عصر القرون الوسطى الذى شاعت فيه علوم شتى نطلق عليها اليوم لقب الشعوذة كاستخدام علم الكيمياء فى سبيل تحويل المعادن وعلم الفلك للتنجيم وضرب الرمل وكان زاما لادباء العرب ، والذين منهم على اتصال باليهود باسبانيا على الاخص ، وهم أدباء المغرب — انه كان لزاما عليهم أن يعرضوا لهذا جميعه ؛ وقد عرضوا له بالفعل كما نجد ذلك فى مقدمة ابن خلدون

هذا هو العصر الذى نشأ فيه ابن خلدون وقد أسهبنا فى وصفه لان مؤرخنا الكبير يعد نموذجا له ؛ وهو نموذج راق لانه وان كان ملما بالعلوم التى شاعت فيه ، وان كان ينظم الشعر على طريقة علماء العصر ؛ ويكتب النثر مثلهم ؛ غير أنه كان أبعد منهم تفكيراً وأعمق بحثا وأوسع ذكاء وكان متقلدا حينا ومستنبطاً أحيانا .

٢ — نسبه

يتصل نسب ابن خلدون ببنى حجر من ملوك كندة ، وكانوا بحضرموت من عرب اليمن ؛ وقد قدم جده وائل بن حجر على النبى محمد وأسلم بين يديه فبسط له ردائه وأجلسه عليه وبارك له فى ولده الى يوم القيامة .

وأول من دخل الاندلس من أجداد ابن خلدون (خالد بن عثمان »

ويقول بعضهم انه أضيفت الى اسم هذا الجد « خالد » الواو والنون لعادة اتبعتها الاسر العربية الاصيلة فى الاندلس والمغرب وهى أن تأخذ هذه الاسر من سلسلة آبائها الاسم الاقل ذيوعا وتردفه بالواو والنون للتمييز ويرى المستشرق دوزى ان اضافة الواو والنون لاتختلف عن صيغة التكبير فى اللغة الاسبانية كقولهم للكبير جدا « جراندون » فيكون معنى خلدون خالد الكبير

ولما دخل خالد أو خلدون نزل بقرمونة فى رهط من قومه ونشأ بيتا وانتقل الى اشبيليه حيث اشترك بنوه فى الثورة التى طال أمدها هناك وكانوا « نهاية فى النباهة » (١) وظل بيتهم « ثابت الاصل ثابت الفرع موسوما بالرياسة السلطانية والعلمية » واستوزر ابن عباد بنى خلدون واستعملهم فى رتب الدولة وحضروا معه واقعة الجلالقة ، وانتهى أمر هذه الحروب بزوال دولة بنى عباد وتغلب عليهم يوسف بن تاشفين والمرابطون ، ثم تغلب الموحدون على المرابطين . واشترك بنو خلدون فى سياسة الدولة وحروبها وثوراتها فى الاندلس حتى نزح أحد أجداده الى المغرب (وكانت العرب تسمى مراكش المغرب وتونس افريقيا) وولى امراء بجاية جده الادنى الحجابة . أما والده فنزع « عن طريقة السيف والخدمة الى طريقة العلم والرباط » وكان قد تفقه على بعض علماء زمانه حتى أصبح " مقدما فى صناعة العربية وله بصر بالشعر وفنونه . وكان أهل البلد يتحاكمون اليه فيه ويعرضون عليه ،، وهلك بالطاعون الجارف عام ٧٤٩ هـ . (١٣٤٩ م)

٣ — ترجمته

١ — ولد ابن خلدون واسمه ابو زيد ولى الدين عبد الرحمن فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ للهجرة الموافق ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ للمسيح بمدينة تونس وتربى فى حجر والده الى أن أتم وقرأ القرآن على الاستاذ الانصارى افرادا وجمعا ، وعرض عليه بعض كتب التفسير . وتعلم فى خلال ذلك " صناعة العربية ،، على والده وعلى اساتذة آخرين . وقد أطال ابن خلدون فى الترجمة التى وضعها لنفسه فى ذكر مشايخه الذين اجازوه وذكر اجازاتهم . وهكذا درس كتاب التسهيل فى النحو وقصيدة البردة المشهورة وكتب الاشعار الستة ، والحماسة ؛ وطائفة من شعر المتنبى ، ومن أشعار الاغانى وغيرها ؛ كل هذا وهو لم يبلغ السابعة عشرة من عمره اذا أخذنا بقوله ان شيوخه هؤلاء " دوجو جميعا بالطاعون الجارف ،، الذى أودى بوالده أيضا عام ٧٤٩ كما قدمنا .

٢ — توفى والد ابن خلدون اذن وذهب مشايخه ولم يبق الا القليل منهم فاكمل دروسه عليهم ثلاث سنوات قرأ فى أثنائها المنطق والاصلين وعلوم الحكمة .

ثم اضطرته ظروف الحياة وكسب القوت الى العمل فعين للعلامة للسلطان أبى اسحق الثانى الحفصى أمير تونس . وكتابة العلامة كما يقول ابن خلدون هى كتابة « الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ مابين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم ».

كان ابن خلدون كما يظهر من ترجمة حياته التى كتبها بنفسه شديد الاعزاز لاصله وجدوده كبير الطموح الى أن يصل الى المراتب العالية التى نالوها فى الحياة فقاده طموحه هذا الى أن يزج بنفسه فى شتى المغامرات والدسائس التى كادت تنقلب وبالا عليه فى بعض الاحايين . وحياته سلسلة مغامرات سياسية تفسر لنا حياة المقربين الى الامراء فى ذلك العصر وما كانوا يستهدفون له من اخطار أهونها السجن والعذاب .

ولولا سعة حيلته وشدة ذكائه وواسع علمه لما استطاع منجاة من مهالك جمة تعرض لها وحياته كذلك مليئة بالحوادث لانه طاف بجميع بلاد المغرب وافريقيا والاندلس واتصل بملوكها وكانت له معهم وقائع اذ كل واحد منهم يوليه وظيفة ثم ينقلب عليه ، فبينما هو فى رغد من العيش اذا به طريح السجن .

وكان ابن خلدون يعاملهم بالمثل لانه بينما هو فى خدمتهم اذا به يفاوض أعداءهم ليمكنهم منهم كما سنفصله .

أما اتصاله بابى اسحق فقد انتهى بأن خرج هذا الامير فى حرب واصطحب ابن خلدن فيمن اصطحب من عماله فكسر جيشه ونجا ابن خلدون وكان قد قر رأيه على الهرب على الحالتين

٣ — أخذ ابن خلدون يتنقل فى منازل قبائل البربر الى أن ذكر بالخير لدى السلطان ابى عنان المرينى أمير مراكش (فنظمه فى أهل مجلسه العلمى ؛ والزمه شهد الصلوات معه ، ثم استعمله فى كتابته والتوقيع بين يديه) أى أنه جعل كاتبا . وقال ابن خلدون عند ذكره هذا انه كان (على كره منى اذ كنت لم أعهد مثله لسالفى) على انه عكف على النظر والقراءة

وكان بمدينة فاس أيامئذ أحد أمراء بنى حفص يدعى عبد الله . وكان أميراً على بجاية فاسره السلطان أبو عنان ؛ فاتصل به ابن خلدون لسابق معرفة بين اسلاف هذا وذاك ،

فسعى بعضهم لدى السلطان ان ابن خلدون

(١) كل الجمل الموضوعة بين قوسين مأخوذة من الترجمة التى وضعها ابن خلدون لنفسه والتى سنذكرها فيما بعد

يدبر بكيدة لاعادة الامير الاسير الى مملكته على أن يكون وزيراً له . فأمر السلطان بسجنها . ثم أفرج عن الامير وأبقى ابن خلدون فنظم قصيدة يستعطفه مطلعها :

على أي حال لليالى أعاتب
وأى صروف للزمان أغالب

كفى حزنا انى على القرب نازح
وانى على دعوى شهودى غائب
وانى على حكم الحوادث نازل

تسلمنى طوراً وطوراً تحارب

فرق لحاله ووعده بالافراج عنه . ثم توفى أبوعنان (٢٨ نوفمبر سنة ١٣٥٨) وقام بالامر بعده وزيره الحسن بن عمر فاطلق سراح ابن خلدون وخلع عليه وأعاده الى سابق عمله .

٤ — ولكن الامر مالبث أن اضطرب على ابن عمر هذا ومالبث رعاياه أن انتقضوا عليه . فارتحل عنه ابن خلدون والتحق بخدمة عدوه السلطان أبى سالم الذى جاء من الاندلس مطالبا بعرشه فى مراكش وسعى ابن خلدون لدى عظماء المملكة بالانقضاض عن المنصور ، وهو السلطان الذى ولى الحكم بعد أبيه أبى اسحق ، ونصرة الامير الجديد أبى سالم .

فكافأه هذا الامير أحسن مكافأة وأجزل له العطاء واستعمله فى كتابة سره والترسل عنه والانشاء لمخاطبته . قال ابن خلدون مفاخرا : «وكان أكثر مايصدر عنى بالكلام المرسل بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الاسجاع لضعف انتحالها وخفاء معانيها على أكثر الناس بخلاف غير المرسل فانفردت به يومئذ وكان مستغربا عند من هم من أهل هذه الصناعة »

٥ — لكن تقربه من السلطان اكثر عليه الحساد الذين وشوا به لدى أبى سالم فلقيت وشاياتهم أذنا صاغية من السلطان ، ورأى ابن خلدون فتوره فاخذ يدبر أمر يخرجه من حرج موقفه فائتمر بالسلطان أبى سالم مع ابن عمر الوزير السابق لابى عبد الله وهو الذى أطلق سراحه من السجن ومهد ابن خلدون لصديقه هذا سبل الظفر بابى سالم على أمل منه أن يتشاطرا الحكم ولكن خاب ظنه حين رأى الوزير يستأثر وحده بالامر ويكتفى باغداق المنح والانعام عليه فاحفظ ذلك ابن خلدون واستقر رأيه على السفر الى بلده بافريقيا ..

من يدرى لعل ابن خلدون رأى بفطنته أن مجال السعى والدسائس قد سدت عليه لان الامير الجديد عليم بخفايا نواياه بحيث صبح موقفه حرجا فى فاس ففضل السفر الى تونس .

ويستنتج من كلام ابن خلدون انه لم يكن ينوى السفر الى تونس مسقط رأسه بل الى تلمسان حيث كان يعلو نجم سلطانها ابى حمو بدليل ان عمرا أذن له بالسفر حيث يشاء عدا تلمسان فسافر ابن خلدون الى الاندلس بعد أن أرسل امرته الى قسنطينه . ووصل ابن خلدون الى غرناطه فى شهر دسمبر عام ١٣٦٢ .

٦ — كان ملكا على غرناطه ابا عبد أبو عبد الله الخامس الناصرى المعروف بابن الاحمر ، وهو لقب كان يطلق على أمراء الاسرة الناصرية ، وهى آخر دولة اسلامية ملكت بالاندلس ومنها استرجعه الاسبان بلادهم.

وكان ابن الاحمر هذا قد خلع عن عرشه من قبل فاضطر الى الالتجاء الى افريقيا طلبا للنجدة من ملوكها . وقد عرفه ابن خلدون بفاس « وحصلت له معه سابقة صلة وخدمة » وعرف كذلك وزيره المؤرخ الكبير والاديب المشهور لسان الدين ابن الخطيب وقد صحب مولاه الى افريقيا .

اكرم ابن الاحمر اذن وفادة ابن خلدون وقربه اليه وضمه الى حاشيته . ولما رأى مقدرته السياسية أرسله بمهمة الى ملك قشتالة المسيحى وكان « بطره بن الهنشه » كما يسميه العرب وهو « بترو بن انفنس » المعروف فى التاريخ باسم « بترو القاسمى » وكان هذا الملك باشبيليه حيث كانت تقيم أسرة ابن خلدون من قبل كما رأينا ولابد ان هذا الملك كان عالما بوجاهة الاسرة وخطرها فرحب به خير ترحيب وطلب اليه المقام عنده ورغب أن يرد اليه تراث سلفه باشبيليه اذا رضى بالاقامة . ولكن ابن خلدون وفضل العودة الى غرناطة فزوده الملك بهدايا فاخرة . وهى ابن الاحمر عن الطريقة التى أدى بها ابن خلدون مهمته فاقطعه قرية ووصله بمال . وطابت له الاقامة بالاندلس وظن أن الحياة قد صفت له فوطد عزيمته على الاقامة بغرناطه واستقدم أسرته اليها .

ولكن هيهات أن تصفو الحياة لمن كان مثله بعيد المقاصد متشعب الاغراض . فقد أشاع حساده عنه صدقا أو كذبا أشاعات أوغرت عليه صدر لسان الدين بن الخطيب فتغير له وأحس ابن خلدون بانقباضه .

٧ — وكان ابن خلدون قد تعود الاسفار وركوب الاخطار . وفيما هو يفكر بالاوبة الى بلده اذ جاءه كتاب من صديقه القديم ابى عبد الله محمد أمير بجايه الذى عرفه أيام سجنه بفاس

وحاول أن يعيد اليه ملكه . وفى الكتاب يخبره صديقه انه قد عاد الى ملكه ويسأله السفر اليه . ففاد ابن خلدون غرناطة فى ١٣ فبراير سنة ١٣٦٥ وبعد سفر أربعة أشهر وصل الى بجاية فخرج الامير ورجال دولته لاستقباله واجتمع الشعب للترحيب به . وولاه الامير « الحجابة » ومعناها فى دول المغرب « الاستقلال بالدولة » والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته لايشاركه فى ذلك أحد » وهى بمثابة رئاسة الوزارة . فأخذ مهام منصبه العالى ولكن أميره مالبث أن قتل فى حرب نشبت بينه وبين ابن عمه الامير أبى عباس صاحب قسنطينه . فرغب هل بجاية الدفاع عن ملكهم والمناداة بابن الأمير الصريع ملكا عليهم . فأبى ابن خلدون وسلم المدينة للظافر من غير حرب ولا دفاع أمل أن ينال حظوة لديه . وكان له ماأراد زمنا قصيراً ثم وشى به الى الامير الجديد ، وحذر منه ، وشعر ابن خلدون بذلك فارتحل عنه والتجأ الى صديق قديم له يدعى احمد بن يوسف بن مزنى بسكره وأقام عنده زمنا

٨ — ثم قدر لابن خلدون أن يتصل بابى حمو الثانى أمير تلمسان فارسل ابن خلدون الى قبائل بنى رياح يستدر جها لمساعدته فى الحرب التى أرمعها على مير بجايه ووعده بالحجابة والعلامة اذا أفلح وكانت هذه فرصة سانحة لابن خلدون لينتقم من عدوه أمير بجايه وينال الرتبة العالية . فروفق الى استمالة القبائل وكان له ماأراد .

٩ — على أن الحرب مع بجاية لم تقم لان عدواً جديداً شديد البأس ظهر لابى حمو ففضل ابن خلدون الرحيل عنه . وفيما هو مسافر وقع أسيراً فى قبضة السلطان عبد العزيز المرينى عدو أبى حمو . فعرف ابن خلدون كيف يستميله اليه . وكان هذا الامير رأى فى مصانعته نفعاً فأكرمه وسيره الى قبائل بنى رياح ليجمع كلمتها على نصرته . فلم ير ابن خلدون من حرج عليه اذا فعل . ووفق فى مهمته الجديدة كما وفق من قبل .

١٠ — وكان السلطان عبدالعزيز قد توفى (١٣٧٢) واضطرت ابن خلدون ظروف عدة ملأى بالمغامرات التى يطول شرحها — انها اضطرته الى العودة الى مسقط رأسه مدينة فاس وكان يقتسم الملك عليها أميران فاتجه بالميل الى أحدهما مساعدته على الثانى فسجنه هذا مدة ثم أفرج عنه فسافر الى الاندلس حيث ابن الاحمر الذى أكرم وفادته من قبل وكان ابن خلدون يأمل أن ينال لديه مكانته السابقة .

لكن الزمان قلب والدنيا لاتبقى على حال . ألم يتغير ابن خلدون على ابن الاحمر وسعى الى انقاذ وزيره الطريد ابن الخطيب فلماذا لايتقم عليه الاحمر ؟ انه قد فعل واضطره الى الاوبة الى افريقيا وما كاد يستقر بها حتى رأى نفسه فى قبضة السلطان أبى حمو الذى خانه وساعده عدوه عليه . ولكن ابن خلدون يعرف كيف يتزلف وكيف ينجح فاذا الامير صانع غير ناقم واذا ابن خلدون مرسل فى مهمة جديدة لدى القبائل . فرضى وسافر .

ولعمل ابن خلدون رأى بحصافة ذكائه مايكون موقفه لدى القبائل التى يدعوها كل يوم لخدمة أمير جديد ويجد لها الانتقاض على من دعاها لمساعدته من قبل . فلم يلبث أن اعتذر واستقر رأيه على اعتزال السياسة والتفرغ للعلم وهكذا فعل

١١ — ونزل على بنى عريف وأقام فى مكان يدعى «قلعة بن سلامة» أربعة أعوام قضاها بعيداً عن الناس عاكفا على التفكير والتأليف فوضع المقدمة المشهورة أو الجزء الاكبر منها وأخذ بكتابة تاريخه المشهور فلما انتهى منه الى أخبار البربر وزناته رأى أن يراجع بعض الكتب القيمة التى لاتوجد الا فى مكاتب المدن الكبرى حتى يستطيع تنقيح كتابه لتصحيحه . فقصد الى تونس «حيث قرار آبائه ومسا كنهم وآثارهم وقبورهم» كما يدعى هو ، ويقول الدكتور طه حسين بل لانه لم يكن يمكنه السفر الى « بلد غير تونس اذ أغلقت دونه افريقيا الوسطى واسبانيا ومراكش » فقصد اليها عام ١٣٧٨ وأقام فيها معتزلا السياسة منصرفا عن الشعر منقطعا الى العلم والتعليم . وقد مهد له السلطان سبل اتمام كتابه فاكمل أخبار البربر وزناته ورفع نسخة منه الى خزانته . ولكن بطانة السلطان وفى مقدمتهم شيخ الفتيا محمد بن عرفه كانت قد غصت من الحظوة التى نالها لديه . فاخذوا بالوشايات عليه واستدرا على قولهم بان ابن خلدون الذى مدح كل الامراء الذين اتصل بهم قد أمسك عن مدح هذا . فتغير عليه السلطان وضغط ابن خلدون للتزلف وقرض الشعر فنظم فى مدحه قصائد منها هذه التى مطلعها :

هل غير بابك للغريب مؤمل
أو عن جنابك للأمانى معدل
هى همة بعثت اليك على النوى
عزماً كما سحذ الحسام الصيقل
متبوأ الدنيا ومنتجع الحيا
والغيث حيث العارض المتهلل

وكثرت سعاية البطانة بكل نوع من انواع الوشايات وأخذوا يحطون من مقام ابن خلدون حتى ضاقت به الدنيا فاعتزم السفر . وكان بالمرسى سفينة لتجار الاسكندرية قد شحنها التجار بامتعتهم وعروضهم وهى متجهة الى الاسكندرية فاستأذن السلطان بالخروج الى الحج فاذن له ولكن ابن خلدون لم يكد يصل الى الاسكندرية بتاريخ ١٢٥ اكتوبر سنة ١٣٨٣ حتى نزل فيها وقام فيها شهراً لتهيئة أسباب الحج فلم يقدر له عامئذ فانتقل الى القاهرة وأقام فيها زمناً على ماسيقصه على حضراتكم الاستاذ الشيخ بشير الشندى .

١٢ — وفى هذه الفترة كان تيمورلنك الفاتح التترى الشهير قد أخذ يجتاح بلاد الشام ويستولى على مدينة حلب فسار اليه ملك مصر فرج بن برقوق بجيش للدفاع عن ملكه واستصحب معه العلماء وبينهم ابن خلدون

ولما وصل الجيش المصرى الى دمشق أنزلوا ابن خلدون فى المدرسة العادلية وهى التى كان بناها الملك العادل ابو بكر بن ايوب ملك مصر الذى حارب الصليبيين وفيها قبره ، وهى اليوم دار المجمع العلمى بدمشق ومتحف للآثار العربية .

وما ان استقر الملك بدمشق وأخذ فى تحصينها حتى جاءته أنباء مؤامرة دبرت بمصر فعاد مسرعا تاركا للسوريين الدفاع عن بلدهم كما يريدون .

١٣ — رأى العلماء أن يخرجوا الى تيمورلنك ليطلبوا اليه العفو عن المدينة مقابل فدية كبيرة يعدونه بدفعها . وقاموا بعملهم فلم يفلحوا وثار الدمشقيون بهم لما علموا بفعلهم وقرروا الدفاع عن مدينتهم الى النهاية . وخاف ابن خلدون عقبة الامر فاتفق مع العلماء وتدلى من الحصون بحبل وسار الى تيمور لنك وتحدث اليه طويلا . ولاشك ان الفاتح التترى قد أعجب بالمؤرخ الفيلسوف لانه سأله كتابة رسالة عن أفريقيا الغربية ووصفها الجغرافى فكتب ابن خلدون الرسالة وأمر تيمور لنك بترجمتها .

وظل ابن خلدون فى ضيافته خمسة وثلاثين يوما .

والظاهر ان ابن خلدون لم يوفق الى الغاية التى قصد لاجلها تيمور لنك وهى الابقاء على المدينة وسلامتها من النهب بدليل أن جنود الفاتح ما كادت تدخل المدينة حتى نهبوها وأحرقوها وذبحوا سكانها

على أن ابن خلدون استجار بالفاتح وقدم له هدايا منها مصحف بديع الخط ثمين التجليد

ونسخة من قصيدة البردة وسجادة وعلبتين من الحلوى المصرية . فلما تقدم ابن خلدون بهداياه الى العرش استفسر تيمور لنلك عن الكتابين فقيل له ان أحدهما القرآن فتناوله ووضعه على رأسه وقبل البردة وذاق ابن خلدون الحلوى بين يدي الفاتح للدلالة على أنها غير مسمومة ثم أكل تيمور لنك وأعوانه ولما سأله حاجته ذكر له انه وحيد بدمشق وطلب منه أن يشمله بحمايته مع رفاقه من علماء مصر فرضى الملك التترى بذلك

وسأله مرة هل تود العودة الى مصر؟ فأجابه :

«ان أكبر أمنية لى هى أن اتبع مولاى» فلم يقبل تيمور لنك بذلك وأعاده الى مصر مع زملائه العلماء ووهبه شيئا من المال

وقد كتب ابن خلدون رسالة مسهبة روى فيها حديثه مع تيمور لنك ورفعها الى سلطان مراكش . وقد قال فيها عن الفاتح التترى : « يخطىء أولئك الذين يقولون أن ذلك الرجل عالم جداً فهو رجل وافر الذكاء مولع بالمجادلة فيما يعلم ومالا يعلم »

وكانت وفاة ابن خلدون بمصر فى ١٥ مارس عام ١٤٠٦ م

٤ — أخلاقه

أيها السادة : لاشك أن أصعب مطلب فى هذا الحديث هو البحث فى أخلاق ابن خلدون ونحن قبل أن نحكم عليه حكماً قاسيا كما فعل بعض معاصرينا يجب أن نتصور العصر والبيئة اللذين عاش فيهما والعوامل النفسية التى اضطرته الى أن يسلك طريقا معوجا للوصول الى غاياته .

كانت العروش أيامئذ مضطربة لاتستقر على حال ، فالامير لايستتب له الامر حتى ينقض عليه ، والوزراء لايولونهم الامراء شؤون الدولة ويرفعون من قدرهم الا ليجتثوا قذفهم من حالق ، وكان ابن خلدون شديد الاعتزاز بأجداده يريد ان يسمو الى المنزلة التى تبوؤها فى حياتهم وأن يصل الى المناصب الرفيعة التى تقلدوها ، وكان لذكائه ودهائه هدفا لضغينة حساده فكانوا لايعدمون وسيلة حقيرة للنيل منه والوشاية به ورميه بشتى المثالب.

أجل أيها السادة ، متى عرفنا مجموع هذه العوامل تجاوزنا كثيراً عما يتقولون به عليه من فساد الاخلاق السياسية وحب الذات والاثرة والنفعية وغير ذلك ونرى انه اضطر الى هذه النقائص اضطراراً فى بلد كافريقيا والمغرب حيث كان لزاما عليه أن يحتاط دون بطش السلطان ومكر الاعداء والحساد . على أنه حين جاء مصر ووجد أمامه حكومة قائمة ونظاما مستتبا أظهر انه على قسط وافر من الفضائل الخلقية التى تذكر له بالحمد الكثير

ونحن اذا رجعنا الى عصره للحكم عليه فلاننا نعرف أن بعض معاصريه قد ذكروه بالثناء على حسن أخلاقه وتمام فضائله

وسترون أيها السادة فيما قاله فيه لسان الدين بن الخطيب الذى عرفه عن كثب فكان تارة يصفو له وتارة ينقلب عليه ، انكم سترون كيف تتغير صور الاشياء وتكون النقائص فضائل ، قال :

«أما المترجم به فهو رجل فاضل حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصى الزى ، عالى الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لتقنن الرئاسة خاطب للحظ »

أما خير مزية نعجب بها اليوم فى ابن خلدون فهى السياسى ! أجل كان ابن خلدون سياسيا حاذقا قوى الحجة ، ذا دهاء ولين جانب قديراً على اقناع المتحدث اليه واستمالته ، لم يتول مفاوضة الا بلغ قصده ، ولم تعهد اليه مهمة الا قام بها خير قيام ، فلم يفشل فى واحدة منها مهما كانت شاقة

٥ — ثقافته

على أن ابن خلدون لم يكن شخصية فذة بدهائه فحسب ، ولو كان كذلك لما خلد هذا الخلود ولما نال هذه العظمة ، ولكان اسمه اليوم نكرة من النكرات لا يعرفه غير المتبحرين فى التاريخ انه كان كذلك شخصية فذه بذكائه وعلمه .

سوف تتبينون ، أيها السادة ، عظمة ابن خلدون من هذه الناحية لما سيفصله لحضراتكم خطباء الحفلة ، واكتفى بان أقول ان ابن خلدون قد طاف بالعلوم الشائعة فى عصره سواء منها التاريخ والفقه والادب والفلسفة والحساب والطب والفلك والتنجيم وغير ذلك ، وتحدث عنها فى المقدمة حديث عالم قدير واقف على أسرارها مطلع على دقائقها ، فقد كان فى نفسه موسوعة كاملة نادرة المثال ، بل كان بنفسه نادر المثال فى آدابنا العربية لم يسبقه الى هذا الاطلاع الواسع أحد من أعلام اللغة ومن يذكر الجاحظ انما يذكر أديبا لا عالما ، وراوية قصاصة لا باحثا مدققا .

وقد جمع الى اطلاعه الواسع ذهنا صافيا وتفكيراً دقيقا ، وذكاء نادراً ، هذه المزايا التى تجمعت فيه ولدت عنده صحة النقد وطول التبصر وأوحت اليه « المقدمة » فاستن بها المؤرخين العربية شريعة لكتابة التاريخ ، ونقد حوادثه .

واذا لم يتبعه أحد فى آرائه ، ولم ينسج على غراره فلانهم لم يفهموه تمام الفهم ولان « المقدمة » بما فيها من آراء جديدة خرجت عن المتواضع عليه أيامئذ .

أما مؤلفات ابن خلدون فكثيرة ذكر له مؤرخوه العدد الوفير منها . ولكنه معروف بتاريخه الذى أسماه بهذه التسمية الطويلة الغريبة :

« كتاب العبر
« وديوان المبتدا والخبر
« فى أيام العرب والعجم والبربر
« ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر »

ويشمل هذا التاريخ المقدمة وينتهى بكتاب « التعريف » وضمنه ترجمة حياته.

٥ — اسلوبه

اختلف النقاد فى وصف اسلوب ابن خلدون الكتابى ، فبعضهم شديد الوطأة عليه ، وبعضهم يرى فيها نموذجا صالحا للانشاء العربى .

والحق أن اسلوب المقدمة فيه تفاوت كبير

ابن خلدون فى مصر

خطبة الاستاذ بشير الشمندى أمين مكتبة البلدية فى حفلة جماعة نشر الثقافة

يقول ابن خلدون فى آخر جزء من كتابه (سألت صاحبنا كبير العلماء بالمغرب أبا عبدالله المقرى وقد حضر من القاهرة . كيف هذه القاهرة . فقال : من لم يرها لم يعرف عز الاسلام وسألنا شيخنا أبا العباس بن ادريس كبير العلماء بيجابه عن القاهرة فقال :

كأنما انطلق أهلها من السحاب . يشير الى كثرة أهلها وانهم من العواقب ، وسألت قاضى العسكر بفاس الفقيه أبو القاسم البرجى وكان ذلك بمجلس السلطان عن القاهرة فقال : أقول فى العبارة فيها على سبيل الاختصار ان الذى يتخيله الانسان ، فانما يراه دون الصورة التى يتخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس الا القاهرة فانها أوسع من كل ما يتخيله الانسان فيها)

بعد ان سمع ابن خلدون هذه المقالة حنت نفسه الى الرحيل الى مصر وآثر البقاء فيها غريبا على أن يبقى فى وطنه وأنتم تعلمون أنه وصل فى وطنه الى آخر مناصب الدولة . هناك استأذن السلطان فى السفر فلم يأذن له فألح فى الطلب وأخبره بأنه يريد أداء فريضة الحج فرضى السلطان على شريطة أن لايأخذ معه من المال الا القليل وأن لايأخذ أحداً من أهله وعياله

وفى منتصف شعبان من سنة ٧٨٤ هـ ركب البحر فودعه أخوانه وتلاميذه وجميع عارفى فضله . وسيظهر انه امر الى بعض أصدقائه بأنه يرغب الاقامة فى مصر فدا ليه هذا الصديق يد المساعدة المالية ليستعين بها على رغبته فرفض ابن خلدون بإباء وشمم قائلا : ياسيدى أما علمت أن الاسد لايعدم فريسته أينما حل .

وبعد أربعين ليلة قضاها فى البحر وصل الى الاسكندرية وكان وصوله اليها يوم عيد الفطر لعشر ليال من جلوس الملك الظاهر برقوق على عرش مصر . فاقام بالاسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج فلم يوفق عامئذ . فانتقل الى القاهرة فى أول ذى القعدة . وفيها يقول :

(رأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الامم ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام ولما دخلتها أقمت فيها أياما وانهال على طلبة العلم بها يلتمسون الافادة مع قلة البضاعة فجلست للتدريس فى الازهر ثم كان من الاتصال بالسلطان فأبر مقامى وانسى الغربة وأجزل العطاء شأنه مع أهل العلم . وانتظرت أن يلحق بى أهلى وولدى من تونس وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر اغتباطا بمودى اليه فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة اليه لتخلية سبيلهم فخاطبهم فى ذلك)

ثم توفى بعض المدرسين بمدرسة القمحة بمصر من وقف السلطان صلاح الدين بن أيوب فتولى التدريس بها مكانه وبينما هو فى ذلك انسخط السلطان على قاضى المالكية فى دولته لبعض المنازعات وولى مكانه ابن خلدون سنة ٧٨٦ هـ

أيها السادة (رجل غريب عن مصر يجىء اليها والناس بين عهدين وكل يحن الى عهد فناس تحن الى العهد القديم وناس تميل الى العهد الجديد وتمدحه والافكار ثائرة والبلد فاض بالعلماء الاعلام وفطاحل الكتاب والادباء مثل محمد بن الجزرى . محمد بن الشحنة وابن مكانس وبدر الدين البشتكمى والعلامة ابن حجر العسقلانى وأبو بكر الزركشى والقلقشندى صاحب صبح الاعشى ومع هذا تمكن الرجل من أن يرقى فى مدة وجيزة الى أكبر منصب من مناصب الدولة

أيها السادة : يقول بعض المؤرخين أن علم ابن خلدون ونفسه الكبيرة هما السبب فى أن وصل الى هذا المنصب الرفيع منصب القضاء الذى سأتكلم عنه . ومع موافقتى على ما قاله البعض من المؤرخين اسمحوا لى أن أقول ليس العلم وحده هو السبب فى هذا . فالكثير من صفحاتها يصح ان يعتبر خير مثال يحتذى فى البحث العلمى بينما نجد صفحات أخرى ضعيفة يراها بعضهم سببا للقول بان المقدمة كتبت فى أطوار مختلفة من حياته وان خير ما فيها كتب فى مصر بعد ان تأثر ابن خلدون بالاسلوب الذى كان شائعاً هنا .

ومهما يكن من أمر هذه النظريات فاننا نجد ان ابن خلدون لم يكن عربيا خالص النشأة والتربية ، ولم يكن فى عصر اشتهر ببلاغة كتابه وجمال أساليبهم ، فلا غرو اذا رأينا لركاكة تتسرب من بعض النواحى الى الكاتب فلا يلبث أن يناهضها حتى يتغلب عليها فيتمسك باسلوب بحثه العلمى حينا أو يقلد الاسلوب الفقهى حيناً آخر .

***

هذه ، أيها السادة ، نظرة سريعة فى ابن خلدون الذى كان ولاشك من أقوى الشخصيات عرفها تاريخ لغتنا العربية بحسن دهائه وقوة تفكيره وسعة اطلاعه ومقدرته على الخلق والاستنباط ، وهو بالرغم من أن مسرح اختباراته كان ضيقا ، وانه جهل الكثير من أحوال العمران عند الامم غير المسلمة فقد استطاع أن يخرج من دروسه العميقة بقوانين للمجتمع جارى بها أعظم مفكرى الغرب وربما فى بعضها حتى رفعه « كارادى فو » الى مقام « أفضل مفكرى أوربا المصرية » (١)

صديق شيبوب

(١) مصادر البحث

« التعريف » لابن خلدون

« فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » تأليف الدكتور طه حسين وتعريب الاستاذ محمد عبدالله عنان

مجموعة « لوائح » للاستاذ فؤاد أفرام البستانى

« آداب اللغة العربية » لكمان هوار

« تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان

« مفكرو الاسلام » للبارون كارادى فو

« دائرة المعارف » للبستانى

الباب الاول ، هو ما عرف عن المصريين من قديم أنهم أمة وديعة تعترف بالفضل لاهله وليس عندهم تعصب لانهم كانوا يعتقدون أنه لا فرق بين تونسى ومصرى وطرابلسى وسورى وحجازى مادام الجميع تحت راية واحدة وهى راية الاسلام وان شئت قلت راية الشرف اذا فالفضل الاول بالنهوض بابن خلدون يرجع الى سماحة المصريين وكرمهم . ويظهر لى أننا قد ورثنا هذه : عادة الاحتفاء بالغريب عن آبائنا .

وليس أدل على صدق ما أقول من أن جمعية نشر الثقافة فى الأسكندرية وهى جمعية مصرية منشأة حديثة كان أول حفلة اقامتها هى تخليد ذكرى ابن خلدون ولم تبدأ بمثلا بذكرى السيوطى ولا النويرى صاحب « نهاية الارب » ولا القلقشندى صاحب (صبح الاعشى) مع أنهم من المصريين الذين عاصروا ابن خلدون والذين ملأوا الدنيا علماً وأدباً وفضلا واذا نظرنا الى آثارهم نجدها أكثر بكثير من آثار ابن خلدون . ولكن مع هذا اعترف بانها فضيلة اسأل الله أن يديمها على مصر .

ولاية القضاء

تولى ابن خلدون قضاء المالكية سنة ٧٨٦ هـ وقبل أن نتكلم عن ابن خلدون فى قضائه لابد لى أن أذكر فذلكة تاريخية عن سبب تعدد القضاء بحسب المذاهب الاربعة .

يقول العلامة القلقشندى (واعلم أن الأمر فى الزمن الأول كان قاصر على قاض واحد بالديار المصرية من أى مذهب كان بل كان فى الدولة الفاطمية قاض واحد بالديار المصرية . لما استقر الحال فى ايام الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ هـ على أربعة قضاة من مذاهب الائمة الاربعة الشافعى ومالك وابوحنيفه وابن حنبل رضى الله عنهم)

وكان السبب فى ذلك فيما ذكره صاحب (نهاية الارب) أن قضاء القضاة فى الديار المصرية كان يومئذ بين القاضى تاج الدين بن عبد الوهاب ابن بنت الأعز (بمفرده) وكان الامير جمال الدين ايد غدى أحد امراء السلطان الظاهر المتقدم ذكره يعانده فى اموره وينفض منه عند السلطان لتشبثه فى الأمور وتوقفه فى الاحكام . وبينما السلطان ذات يوم جالس بدار العدل اذ رفعت اليه قضية بسبب مسكان باعه القاضى بدر الدين السنجارى . ثم دعى ذريته بعد وفاته أنه مرقوف فأخذ الأمير ايد غدى ينفض من القضاء بحضرة السلطان فسكت السلطان لذلك ثم قال للقاضى تاج الدين ما الحكم فى ذلك قال : اذا ثبتت الوقفية يستعاد الثمن من تركة البائع قال : فان عجزت عن ذلك قال: يوقف على حاله فامتعض السلطان فسكت ثم جرى فى المجلس ذكر امور أخرى فوقف القاضى فى تمشيتها . وكان آخر الأمر أن الامير ايد غدى حسن للسلطان نصب أربعة قضاة من المذاهب الاربعة وصار الحال على ذلك الى عهد ابن خلدون وبعد عهده

نعود الى ابن خلدون فنقول انه تولى قضاء المالكية سنة ٧٨٦ هـ وكان على قضاء الشافعية القاضى بدر الدين السبكى وعلى قضاء الحنفية القاضى شمس الدين بن منصور وعلى قضاء الحنابلة القاضى نصر الدين المستلانى ويقول « اختصنى السلطان بهذه الولاية تأميلا لمكانتى وتمهيدا لذكرى شأفته بالتفادى من ذلك فأبى وخلم على بإيوانه وبعث من كبار الخاصة من أقعدنى بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين »

فقام والحق يقال بالقضاء خير قيام لا تأخذه فى الله لومة لائم مسويا بين الخصمين أخذا لحق الضعيف من القوى معرضا عن الشفاعات جانحا الى التثبت فى سماع البينات والنظر فى عدالة المتنصبين لتحمل الشهادات مزهقا للباطل نصيرا للضعيف متى كان الحق فى جانبه معطيا المثل الاعلى للنزاهة والعفة مسويا فى عدله بين الحقير والكبير والغنى والفقير وهنا يقول:

(وقد اختلط الناس فى عهدى فلا نفرق بين الصالح والطالح ولا بين الخبيث والطيب والحكام ممسكون عن انتقادهم فاذ غالبهم مختلطون بالامراء يعلمون القرآن ويصلحون بالناس فى المساجد فيظنون بهم الخير ويزكونهم عند القضاء قضاة وفشت بينهم المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس)

ويظهر أن ابن خلدون وقف بحال بعضهم فعاقبهم بموجب العقاب ومنهم من منعهم من تحمل الشهادة وكان منهم من له وظيفة كبيرة فى الدولة فهوها على القضاة بجاههم ولم تدخل حيلهم على ابن خلدون . فحقدوا عليه وثالوا من عرضه وتحدثوا عنه بمختلف الافك ووصل الحال بهم الى أن دسوا له عند السلطان ولكن السلطان لم يسمع لقولهم وهنا يقول ابن خلدون:

(ولم يكن ذلك شأن مزرافقته من الاضاة فنكروه منى ودلوني الى متابعتهم فيما يصطلحون عليه من مرضاة الاكابر ومراعاة الاعيان وان أقضى للجاه بالصورة الظاهرة أو دفع الخصوم اذا تعذرت بنا على أن الحاكم لا يميد عليه الحكم مع وجود غيره وليت شعرى ما عذرهم فى الصلاة الظاهرة اذا علموا خلافها والنبى صلى الله عليه وسلم يقول من قضيت له من حق أخيه شيئا فانما أقضى له من النار »

بعد ذلك نادى الناس عند باب السلطان للتظلم منه ودسوا لاولياء السلطان وعظماء الدولة يقيمون لهم أن يهمل هذا الرجل جاههم وان يرو الشفاعة عليهم وهنا يقول

« فكثر الشغب على من كل جانب وأظلم الجو بينى وبين أهل الدولة » ووافق ذلك مصابه بالاهل والولد الذين غرقوا فى البحر عند مجيئهم اليه من المغرب فعظم مصابه واعتزم الخروج من المنصب فاستشار بعض أصدقائه فلم يوافقه خشية من غضب السلطان عليه ويقول هنا (فتوقفت بين الورود والصدر على صراط الرجاء واليأس وعن قريب تدارکنى اللطف الربانى وشملتنى نعم السلطان ايده الله بالنصر بعد الرحمة وخلى سبيلى من هذه العهدة التى لم أطق حملها)

ثم مكث بعد عزله ثلاث سنين قضاها فى التدريس والتأليف ثم عزم على قضاء فريضة الحج فخرج من القاهرة فى منتصف رمضان سنة ٧٨٩ هـ وبعد أن حج عاد الى مصر ثانية وأقام بها الى أن مات سنة ٨٠٨ هـ يوم الاربعاء الخامس والعشرين من رمضان وله من العمر اربع وسبعون سنة وخمسة وعشرون يوما ودفن فى مقابر الصوفية بباب النصر

ابن خلدون المؤرخ

كلمة للاستاذ محمد سعيد ابراهيم فى حفلة جماعة نشر الثقافة

لعل مقدمة ابن خلدون لتاريخه هى المقدمة الوحيدة التى جارت على الكتاب الذى صدرت به فطوته فى زوايا الاهمال والنسيان . فمن من قراء الادب العربى لم يسمع بمقدمة ابن خلدون ؟ ولكن القلائل منهم يعرفون أن لابن خلدون كتابا اسمه كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر . والحقيقة أن عظمة ابن خلدون الفكرية قد أودعها فعلا فى هذه المقدمة الجبارة وترك تاريخه لا يفضل غيره من كتب التاريخ ولذلك لم يحفل أحد ممن كتب عن ابن خلدون بكتاب التاريخ وعاب الكثيرون عليه نسيانه فلسفته التاريخيه وآراءه الاجتماعية الطريفة التى بهر بها قراء المقدمة عند ما كتب تاريخ العرب والبربر ويعتقد الكثيرون انه خالف طبعه وناقض نفسه فى الحالتين اذ كان فى المقدمة مفكراً ينظر الى الحياة الانسانية باعتبارها وحدة روحية خاضعة لنواميس استنبطها هو بثاقب نظره وكان فى الثانية للتاريخ مجرد راوية .

ولكن الحقيقة أن ابن خلدون لم يقصد أن يمسح تاريخه على غير هذا المنوال حتى نظن به القصور عن بلوغ غايته وفهمه بالعجز عن تطبيق آرائه فى المجتمع على الحوادث التى سردها فى كتابه . فهو يعتقد أن التاريخ ذكر للاخبار الخاصة بعصر أو جيل . فأما ذكر الاحوال العامة فهو أس للمؤرخ يبنى عليه مقاصده ويتبين به أخباره . وانه لما كان التاريخ أخبارا تروى عن المجتمعات الانسانية وكان الكذب متطرقا لكل خبر بطبيعة الحال لاسباب تقتضيه : منها التشيع لبعض الآراء والمذاهب والثقة بالناقلين وتقرب الناس فى الاغلب لاصحاب الجاه وجهل الرواة بطبائع البشر لذلك لابد للمؤرخ من اصطناع الوسائل التى تعصمه عن الوقوع فى الغلط والتورط فى الاكاذيب والروايات المزيفة

واذا فلابد فى رأى ابن خلدون أن يكون المؤرخ عالما بقواعد السياسة وطبائع الأمم ملماً بأحوال الدول ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل حادث واقفا على أصل كل خبر

فاذا تزود المؤرخ بهذه العدة وتصدى لكتابة التاريخ استعرض الروايات التاريخية وحمحصها فى ضوء هذه المعرفة فما وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا وما تنافر مع هذه الاوضاع كان غير جدير بالتصديق واستغنى عنه

والمقدمة فى رأى ابن خلدون الذى أوضحناه هى العدة التى يجب أن يتذرع بها المؤرخ حتى يأمن التورط فى الأخطاء تاريخية .

ويعتقد ابن خلدون أن ماحوته المقدمة من وصف للمجتمع الانسانى وما يعتوره من الغوامض والاحوال هو علم مستقل فى ذاته وانه هو مستنبطه الاول . ويعتذر لقرائه عما قد يرونه فيه من التقصير عن الغاية المثلى لانه بدأ علما جديداً وترك للاجيال اللاحقة اتمامه .

اذا فابن خلدون كان يرى أن هذه الفلسفة الاجتماعية التى اهتدى اليها علم قائم بذاته تمحص به الروايات التاريخية ويكون مجرد أداة للمؤرخ يتبين بها قيمته المادية التاريخية من حيث امكان وقوعها أو استحالته ولم يقصد مطلقا الى أن يكتب تاريخها على طريقة فلسفية وفى هذا لم يختلف ابن خلدون عما سبقه من المؤرخين . واذا كان لنا أن ننتقده فلأنه وهو واضع هذا العلم الجديد كان المؤرخ الجدير بأن يختط للتاريخ خطة أخرى غير الخطة التى سار عليها أسلافه ويخرجه عن كونه رواية تافهة للحوادث . فالحقائق التاريخية لها ظواهرها وبواطنها فظواهرها هى الحوادث التى تروى أما وليس لهذه الحوادث معنى أو دلالة مالم تعرف ملابساتها والدوافع لها ومقاصدها وهذه الاشياء هى لباب الحوادث التاريخية . ومالم يمكن الوقوف عليه فان التاريخ يصبح ضربا من ضروب المعرفة لاقيمة له بالمرة

ولنعد لى طريقة ابن خلدون فى تمحيص الحوادث لنرى ان كانت هذه الطريقة المثلى لاثبات بعض الروايات واسقاط البعض الآخر بدعوى عدم اتفاقه مع القوانين التى ارتآها .

وليس القصد هنا التعرض لتفصيل هذه القوانين ولكننا نتساءل هل من الحق أن يجزم بصدق بعض الروايات أو تكذيبها لمجرد اتفاقها أو اختلافها مع القوانين التى ابتدعها ابن خلدون . اظن أن ثقة ابن خلدون فى آرائه قد جاوزت طاقة معرفته وانه لكثير حقا أن يعتقد انه قد استنبط كل القوانين التى تخضع لها المجتمعات الانسانية وهو القائل انه البادىء لعلم جديد فى فلسفة الاجتماع .

ويمكننا أن ندرك شطط هذه الطريقة اذا نظرنا الى الحوادث التى تقع كل يوم أمام أعيننا فنرى منها مالا يستقيم من ظواهر الامور المعقولة عن بلد من البلاد أو فرد من الافراد واذا أخذ بعض المؤرخين بعد انقضاء هذا العصر بطريقة ابن خلدون فى تمحيص الانقلاب الذى وقع فى تركيا بعد سقوط الخلافة لعدها احدى الروايات الملفقة لان هذا الحدث أدى بتركيا بعد الخلافة الى بلد نكر الخلافة ونحى الدين ورائه .

قد يكون الحادث غير مكذوب الرواية ولكنه يتنافى مع قانون موضوع ولكننا لا يجوز لنا فى هذه الحالة أن نتهم بكذب الحادث فالحياة الاجتماعية فى سيرها وظواهرها أعقد أكبر من أن تحد بقانون . نعم هى تخضع

لنواميس. لان الحكمة الالهية التي تسير سفينة المجتمع لها طرقها وهي التي يكد العالم ذهنه في اكتناه سرها فيوفق في الاهتداء الى بعض هذه النواميس ويخفى عليه الكثير.

على أن قدرة ابن خلدون هي في أنه أول من نظر الى المجتمع على أنه مظهر من مظاهر الحياة يخضع لقانون التطور

ولم يسبقه مؤرخ الى القانون الذي سماه الدكتور طه حسين قانون الاطوار الثلاثة. فقد ذهب ابن خلدون الى أن كل دولة تمر ثلاثة أجيال متعاقبة.

الجيل الاول هو مؤسس الملك وهو يتصف عادة بالبداوة والخشونة والاستبسال وسورة النضية وهو بما له من هذه المزايا مرهوب الجانب لانه المتغلب على ملك قديم والباني لمجد جديد.

والجيل الثاني — يتحول من البداوة الى الحضارة ومن شظف العيش الى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه وهنا نكرر سورة النضية بعض الشيء ولا يبقى لهذا الجيل الا مظاهر الجيل الاول لقرب عهده به.

والجيل الثالث — يكون قد نسي عهد البداوة والخشونة كأنه لم يكن ويفقد العصبية ويبلغ به الطرف غايته فيصير عالة على الدولة ويحتاج صاحب الامر الى الاستظهار بسواهم من الاجانب طلاب الرزق

والمحقق من كلام ابن خلدون ان رأيه هذا في كيفية ظهور الدول واندثارها هو ثمرة لتجاربه بين امارات بلاد المغرب التي تعاقبت عليها الحوادث وكانت ميدانا فسيحا للدسائس ولظهور الدول واختفائها واحدة بعد أخرى بسرعة غير مألوفة. ولذلك فلا عجب اذا كان ابن خلدون يعتقد أن عمر الدولة لا يعدو في الغالب أعمار ثلاثة أجيال والجيل عنده أربعون سنة وهو عمر شخص واحد من العمر المتوسط وهذه الاجيال الثلاثة تنتهي الى غايتها على وجه التقريب في مائة سنة

ونظرية ابن خلدون هذه ولو أنها مستنبطة من حياة القبائل البدوية وكيفية تأسيسها للملك الا انها في جوهرها تنطبق على مجتمعات العصور الحديثة

وقبل أن أختم هذه الكلمة المجملة عن طريقة ابن خلدون في كتابة التاريخ ورأيه فيه أقول ان هذا المؤرخ ولو انه لم يكن في تاريخه مؤرخا بالمعنى الذي كان يبتغيه قراء مقدمته الا انه وضع لغيره في هذه المقدمة أساس فلسفة تاريخية يكتب بها التاريخ على طريقة تجعله في جدال العلوم؟

ابن خلدون
الفيلسوف الاجتماعي

للاستاذ مصطفى فهمي ليسانس في الاجتماع وسكرتير جماعة نشر الثقافة

١ — يمكننا أن نتوج هامة ابن خلدون بلقب فيلسوف دون أن يضيق رأسه الكبير بهذا اللقب الجليل. لانه اذا كانت فلسفة أي علم من العلوم تتناول مبدأ تكوينه ونهاية حقائقه واذا كان أكبر مطمع للفيلسوف أن يرسل أشعة تفكيره وذكائه ليضيء ظلام المجهول ويحد حدود العلم أمام العلماء ليتسع أفقهم فيقبلون بأدواتهم العلمية يمحصون ويحللون ليقرروا الحقائق في قالبها العلمي فما بالك برأس لا تقف من الفلسفة هذا الموقف وتأبى الا أن تكشف — علما — بذاته مستقلا بموضوعه فتضيف الى المعرفة الانسانية لاحقائق معدودة بل عالما جديداً هو — العمران البشري — أو — الاجتماع الانساني — على حد تعبير ابن خلدون

٢ — فكرة ابن خلدون عن علم الاجتماع

استعرض ابن خلدون — التاريخ — وبحث حقيقة المركز الذي يشغله بين سائر العلوم فاتضح له أنه لا يمكن ان سيكون من التاريخ — علم — بالمعنى المفهوم من لفظ علم الا اذا قام الى جانبه علم مستقل يصف طبيعة المجتمعات ويكشف قوانين العمران ليتسنى للمؤرخ أن يهتدي بهديه ويستعين بحقائقه. يدل على ذلك قوله في بدء مقدمته.

«... اذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه

وما يكون عارضا لا يعتد به. وما لا يمكن ان يعرض له

فان خلدون يرى أن (الاجتماع البشري) ينفصل في:

١ — القوانين الثابتة للمجتمع

٢ — العوارض الطارئة على المجتمع

٣ — الظروف التي يستحول سريانها على المجتمع

بعد أن ابان (ابن خلدون) أهمية (علم العمران) وضرورته محمد الى وضع حدود هذا العلم. ورسم معالمه. وانتهى الى تخطيط المجتمع على الوجه الآتي

١ — العمران البشري (ويقصد به ابن خلدون الجغرافي)

٢ — العمران البدوي (ويقصد به ابن خلدون التاريخ الطبيعي للمجتمع)

٣ — الدول والخلافة والملك (ويعبر عن الناحية السياسية للمجتمع)

٤ — العمران الحضري (وهو متصل بالعمران البدوي)

٥ — الصنائع والمعاش (ويمثل الناحية الاقتصادية للمجتمع)

٦ — العلوم (ويمثل الناحية العقلية للمجتمع)

ومع أن هذا التخطيط يعتبر تخطيطا ساذجا الا أننا نسجل لابن خلدون توفيقه في هذا التقسيم من حيث جمعه بين الظواهر الاجتماعية (Les Faits Sociaux) أي الظواهر الاساسية في كيان أي مجتمع والظواهر الشبه الاجتماعية (Le Faits extra Sociaux) فمن الاولى ما أسماه ابن خلدون (الدول والخلافة والملك — والصنائع والمعاش — والعلوم) ومن الثانية (العمران البشري — والعمران البدوي — والعمران الحضري

٣ — منهج ابن خلدون العلمي

لم يتخذ ابن خلدون منهجا علميا يتلاءم مع طبيعة العلم الذي نادى به فهو بعد أن أوضح فكرته عن العمران كعلم. وابان أقسامه المختلفة. لا يكاد يبدأ بمعالجة هذه الاقسام حتى يخلط بين مهمته كاجتماعي. ومهمته كمؤرخ بل لا نسرف اذا قلنا ان ابن خلدون نسي واجبه نحو العلم الذي أشار باتجاهه. ونهج في أبحاثه منهجا يناسب الحقائق التي يسردها وتجاهل تجاهلا تاما غايته الاساسية. فجاءت أبحاثه أبعد ما تكون عن الابحاث الاجتماعية ومن هنا نستطيع أن نقرر أنه لم يكن لابن خلدون منهج اجتماعي متبع.

ولا بد قبل أن نأخذ عليه هذا النقص أن نسجل له ثلاث مآثر علمية حرية بالتقدير والاعجاب: —

أولا — أخذه بمبدأ (جبرية الظواهر الاجتماعية) (Le determinjsme ees faits Socjaux) أي أن الحوادث الاجتماعية ليست نتيجة الصدف البحتة ولا خاضعة لارادة الافراد. ولكنها نتيجة بواعث ودوافع ثابتة مهما الاجتماعي كشفها. وهذا المبدأ قام عليه علم الاجتماع الحديث

ثانيا — اتباعه طريقة الاستقراء المطلق: La Vulgarisation Générale أي أنه عند تقرير احدى الحقائق الاجتماعية ينظر الى المجتمع باعتباره (وحدة) مستقلة ويعلل الحوادث الاجتماعية تعليلا — جامعا وهذه الطريقة بعد تهذيبها أخذ بها كثير من علماء الاجتماع وهي تسمى الآن طريقة التركيب العلمي (La synthése Sojentifipue). وقد شاعت هذه الطريقة خصوصا بعد فشل الطريقة التحليلية في ابحاث (علم الاجتماع العام) فابن خلدون في القرن الرابع عشر اتبع نفس الاسلوب الذي أخذ به أخيراً علماء الاجتماع في القرن العشرين

ثالثا — (١) الاسم الذي أطلقه ابن خلدون على الاجتماع وهو (العمران) يكاد يكون أصلح تسمية لهذا العلم. ونحن الآن نستعمل اسم (علم الاجتماع) ترجمة لكلمة Sociologie الفرنسية و Sociology الانجليزية ويظهر تصور هذه الترجمة عند محاولة تعريب الصفتين:

١ — Socja[l]

٢ — Sociologique

فكلاهما نترجمه (اجتماعي) مع وجود فارق كبير بينهما ويمكن تمييزهما بترجمة الأولى (اجتماعي) والثانية (عمراني).

وترجمة الصفة بهذا اللفظ تحتم علينا اتخاذ اسم (علم العمران) كترجمة لكلمة Sociologie

ومعنى ذلك أننا في القرن العشرين نضطر الى الاخذ بنفس التسمية التي اوحى بها فكر ابن خلدون في القرن الرابع عشر!!

٤ — خاتمة:

ان فضل ابن خلدون بصفته أول من أزاح الستار أمام التفكير البشري عن ناحية مجهولة من أدق وأخطر نواحي المعرفة الانسانية ليتضاءل ويتسامى اذا لاحظنا ان الاجيال التي عقبته عجزت لا عن متابعة مجهوده بل عن فهم ابحاثه نفسها. وظل هذا العجز مدة أربعة قرون حجة ناطقة. ورمزاً ناهضا. على ان عبقرية ابن خلدون أرقى من عصره. وأسمى من العصور التي تلته. ولقد ظهر (منتسكيو) في القرن الثامن عشر على مسرح التفكير البشري عقب انسحاب ابن خلدون باربعة قرون. ليتلو علينا ابحاثه التي أسماها (روح القوانين L'esprit deo lois) حيث أبان الصلات التي تربط النظم السياسية من جهة النظم الاقتصادية والعائلية والتعليمية والاخلاقية من جهة اخرى ومقدار ما تؤديه النظم السياسية لاشباع حاجات المجتمع. ومع ذلك فان (منتسكيو) لم يفكر في أنه يبحث داخل الدائرة التي خلقها ابن خلدون ولم يخطر بباله أن ابحاثه تندمج في ثنايا علم يسمى (علم الاجتماع أو العمران) وان هذا العلم حمل لواءه مفكر شرقي هو ابن خلدون

ثم يظهر (اوجست كنت) في القرن التاسع عشر يعلن في ثقة واطمئنان توفيقه في كشف (علم الاجتماع) والوصول الى حلول حاسمة لتطور المجتمع. فيقابله عالم التفكير الغربي بمظاهرة علمية ويخلع عليه لقب (ابي الاجتماع) بينما يجثم ابن خلدون في رمسه متواضعا منسيا يتمتم عبارته الخالدة:

«... ونحن الهمنا الله الى ذلك الهاما: واعثرنا على علم جعلنا بين بكره وجهينه خبره. فان كنت استوفيت مسائله. وميزت عن سائر الصنائع نظائره وأشباهه. فتوفيق من الله وهدايه. وان فاتني شيء في احصائه واشبهت بغيره مسائله. فللناظر المحقق اصلاحه. ولي الفضل لاني نهجت له السبيل. وأوضحت له الطريق»

فلنعترف لابن خلدون بسمو نزعته العلمية. كما اعترفنا بعظمة مكانته الفكرية.

مصطفى فهمي
عضو الجماعة

(١) أذكر أن الزميل الفاضل الاستاذ (عبد العزيز عزت) خريج السربون كان أول من لفت نظري الى هذه الحقيقة ولم أقطع وقتذاك برأي. ولكني بعد أن بحثت التسمية وجدته على حق. فان كان هناك فضل. فالفضل لحضرة الزميل المحترم.

ابن خلدون

العالم الاقتصادى

القيت فى حفلة ذكرى ابن خلدون التى اقامتها جماعة نشر الثقافة بالاسكندرية يوم الجمعة الواقع فى ١٧ يونيو سنة ١٩٣٢

لما وضع ابن خلدون قواعد علم الاجتماع كان لابد له أن يتعرض للمسألة الاقتصادية الرابطة الوثيقة التى تربطها بمسألة العمران البشرى. فانه لاعمران الا بالبشر وهم لابد لهم من السعى لمعايشهم ففكرة المعايش للفرد والجماعة تدرجت بابن خلدون الى بحث شؤون الانسان فى معاده الى الرزق ثم توسع الى تقرير ملاحظات ومبادىء اقتصادية لاتزال تلفت انظار المطالع اليها ولو بعد ستمائة سنة.

لم يكن الاقتصاد علما مستنبطا له قواعده وأصوله وفروعه فى ذلك العصر بل غاية مافى الامر أن اليونان كانوا قد كتبوا شيئا فيه لايتعدى التدبير المنزلى فيما له مساس بالجماعات والملكية والرق. وحمل افلاطون على التجارة فى جمهوريته وأيد الزراعة وتوسع ارسطو فى تأييد الرق والملكية ودافع عن التجارة قليلا. وكتب الافرنج عن النقد فى العصور الوسطى

ولكنا لا نعلم اذا كان ابن خلدون قد اطلع على شىء من هذا. وكيف نعلم شيئا من ذلك ما دام يؤكد لنا أن الادلة والبراهين التى يؤيد بها قضاياه العمرانية قد (أطلعه الله عليها من غير تعليم أرسطو ولا افادة موبذان)

ونحن ما لنا ولهذا كله فقد بدأ ابن خلدون فى تنمى المسألة الاجتماعية لمسايرة الجماعات منذ بدء نشأتها. اذ كانت قبائل متوحشة تضرب فى البادية غذاؤها قنيصها والبان ماشيتها ولحمها. وكساؤها الجلد والصوف والوبر. ثم تحضر شوكة الوحشية فيها اذ تجتمع وتستقر ثم تنتقل الى الحضارة القريبة من البداوة ثم الى الحضارة البعيدة عن البداوة فتؤلف دولة لها ملك وحامية وتتغمس فى العمران الذى يدعو الى الترف والتنعم. ويدعو هاترفها الى الاضمحلال فتتلاشى منقرضة وتخلى مكانها الى دولة أخرى

تنحصر فى البداية حاجة المرء فى قوته وكسائه وأداة صيده ودفاعه فاذا انتقل الى شىء من الحضارة زادت حاجاته بها. فاذا استقرت الحضارة تعددت الحاجات جداً بالعادات الجديدة وتضاعفت الجماعات وماجت بها البلدان والامصار وقامت الدولة حينئذ تنشر الصناعات والتجارات ويزيد المرء فى سعيه ليزيد فى مكاسبه مدا لما يعوزه من جهة وقياما بما عليه للدولة من جباية وضرائب.

فاذا سعى المرء وأثمر سعيه دعى مايجنيه رزقا أو دعى كسبا. فالرزق بتعريف ابن خلدون هو كل حاصل أو مقتنى تعود منفعته على المرء وتحصل له ثمرته من انفاقه فى مصالحه وحاجاته.

وهذا التعريف مطابق كل المطابقة للفظة الثروة بمعناها الاقتصادى الذى نعرفه اليوم. على أن المصرى نفسه قبل ابن خلدون بارىعاية سنة اتجهت الى معنى الرزق على وجهه الاقتصادى حيث قال:

هل كنت الا مثلهن وانما
خير الحياة وشرها أرزاق.

أما الكسب فهو مالا تحصل ثمرة من انفاقه فى مصلحة أو حاجة. ولم يقل لنا ابن خلدون أن الرزق يصير كسبا وان الكسب يصير رزقا.

أما السعى فى تحصيل الرزق فهو المعاش. ويقسم ابن خلدون وجوه المعاش ومذاهبه الى طبيعى وغير طبيعى. ووجوهه الطبيعية ثلاثة الفلاحة والتجارة والصناعة. وهى لم تختص الفلاحة الا بكلمات يسيرة. اذ قال انها من معاش المستضعفين نظراً لتحكم الايدى العالية فى أهلها. ولكنه شرح طريقة الحرث والبذر

أما التجارة فقد عرفها بانها محاولة الكسب لشراء الرخيص وبيع الغالى. فالبضاعة تشترى ثم تباع اما فى مكانها أو تنقل الى مكان آخر

واستوقف التاجر نظر ابن خلدون ولعله ذكر أفلاطون وحملته عليه لو كان قرأه

فقد رأى ابن خلدون انه لايصلح للتجارة الا من كان جريئا على الخصومة بصيراً بالحسبان شديد المحاكة مقداما على الحكام. لان فى معاملة الباعة بشراء البضائع وبيعها وتقاضى الاثمان لابد من الغش والتطفيف المجحف بالبضاعة. والمطل فى الثمن المجحف بالربح. ومن الجحود والانكار المسحت لرأس المال. فاذا لم يكن التاجر جريئا مقداما صار مأكلة للباعة وخصوصا الرعاع منهم وضاعت أمواله عليه.

ثم انه فى معاناة البيع والشراء لابد من المكايسة والمماحكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج. وكل هذه الصفات تنقص الذكاء والمروءة لان الافعال لابد من عود آثارها على النفس. والمروءة خلق من أخلاق الاشراف وأصحاب الرياسات لاتتفق مع حرفة التجارة.

نقول اننا بحمد الله لانصادف اليوم كثيرين من التجار يتصفون بهذه الصفات التى لم يقس بها ابن خلدون عليهم لانهم كانوا فى زمانهم كما وصفهم بل ربما رفق بهم بعض الرفق.

ويرى ابن خلدون ألا يتجر المرء بالرخيص يشتريه ويبيعه لان ربحه قليل بل يجر الاتجار بالغالى المرغوب فيه وعلى هذا فافضل أنواع نقل البضاعة من بلد الى بلد لسرعة حوالة التجارة السوق وسهولة نفاق البضاعة وكثرة الربح الذى تجلبه.

ويذم ابن خلدون الاحتكار والظاهر أنهم لم يكونوا يحتكرون فى زمانه سوى الزرع يخزنونه ويتحينون أوقات الغلاء لبيعه. والسبب الذى يحمل ابن خلدون على ذم الاحتكار ليس فى شىء من الاقتصاد بل هو نفسانى محض اذ يقول « ان الناس يضطرون لبذل المال اضطراراً فى سبيل أقواتهم وما كولاتهم فتبقى نفوسهم معلقة بمالهم المبذول. وفى هذا التعلق سر كبير يجعل هذا المال وبالا على من يأخذه

أما الصناعة فيقول ابن خلدون انها (ملكة فى أمر عملى فكرى وبكونه عمليا هو جسمانى محسوس

ثم يقسم الصنائع الى بسيط ومركب والى ماهو ضرورى وغير ضرورى فالبسيط والضرورى واحد لصناعة الخباز والنجار والحداد. والمركب وغير الضرورى واحد كالوراق والمغنى والشاعر والمهندس والصناعات قليلة ساذجة فى البداوة وبدء الحضارة ثم معقدة فى العمران وقد تزداد وتتربى الى الكمال كلما امعنت البلاد فى الحضارة وأمثال ذلك تعليم الغناء والرقص

وانتساخ الكتب وهو ينسبها كلها الى الرفاهية وقد تخرج عن الحد اذا كان العمران خارجا عن الحد ويستشهد بمايفعله أطواة والذين يعدون على الحبال

وامهات الصنائع فى نظره هى البناء والنجارة والحياكة والخياطة والتوليد والطب وأدخل الخط فى عداد الصنائع ثم الوراقة والغناء وتعليم العلم

هذه وجوه المعاش الطبيعية وهناك وجوه غير طبيعية ذكر فيها الامارة ونفاها لثورة بلا برهان ثم الخدمة لان قليلا من الخديوين الذين يمكن وضع الثقة فيهم ولكنه نهى عن ابتغاء المال من الدفائن والكنوز وحذر المشتغلين فيها من المشعوذين الذين يزعمون أنهم عالمون بمظان الكنوز فاذا كشفوا عنها وجدوا دوداً وترابا

كل ماتقدم مقصور على الفرد الذى يسعى فى تحصيل رزق ولما كان الفرد يؤلف الجماعات رأى ابن خلدون ان يتعاون الجماعات على العمل أجل لم يكن تأليف الشركات مصروفا فى عصره ولا فى بيئته ويرى ابن خلدون أن يدعى الناس الى التعاون فاذا أبوا وجب أن يكرهوا عليه لجلبهم بمصالح النوع وأتم مايستنتجه من التعاون رخص الاسعار فى المدن ومن الذى يكره الناس على التعاون هو الحاكم أو السلطان

ولننظر الى حالة المالية فى الدولة ولا دولة الا بالمال فاذا كان النقد قريبا من البداوة لاتكون النفقات كثيرة لان الناس مازالوا يذكرون خشونة العيش واحتمال المكاره وتكون الجباية المورد الوحيد للدولة وتكون نفسها قليلة لاترهق الرعية ولا تثقل كاهلها. اذ لايكون الملك أو السلطان محوطا باصناف الحاشية والبطانة وأصحاب الوظائف والدوائر. لان فكرة المحافظة على الملك والنهوض عنه والتوسع فيه تشغلهم عن عادات الترف والرفه

أما اذا تعاقب جيل أو جيلان وكثرت البطانة والاتباع والاعوان صار السلطان مرغما أن يجرى لهم الوظائف ويغدق لهم فى العطاء. ويزيد الترف والعادات المستجدة فى حاجات الاعوان والجند. وتبعد الخاصة عن الاطراف فيجب ارسال المدد والمعونة ولايتم ذلك الا بالمال الكثير فتضاعف الجباية وتزيد ولكن هذه الزيادة أيضا لاتكفى فتضرب المكوس أو الضرائب على البضائع متوالية فى الارتفاع

والمكوس لم تكن تضرب على البضائع الواردة فقط بل على كل بضاعة تعرض فى السوق للبيع. وابن خلدون يتخوف المكوس جداً ويرى انها لاتضرب الا فى أواخر عمر الدولة بل يعتقد أن ضربها يؤذن بخراب الدولة واضمحلالها كما يرى أيضا ان الجباية اذا زادت كانت نذيرا على الدولة بالافتراض: لان هذا التزيد فى الدخل معناه الاحتياج الشديد الى المال ولابد فى التزيد من استعمال القسوة والظلم والاستبداد بالرعية. وهذه الحالة تعد بهمة التجار سواء من جاء من الخارج أو من الداخل وترمى اليأس فى نفوس المزارعين فيتركون الارض بوارا وربما نزحوا عن القطر فيخف الساكن وتأخذ البلد بالاقواء.

وهما تفنن أعوان السلطان فى يزرعوا ويتجروا باسمه وحسابه فانما يزيدون فى عدد العاطلين ويرمون الدولة فى المتاعب.

ويغضب ابن خلدون غضبة مضرية على الظلم ويعدد أنواعهم من جباة بغير حق ومعتدين على مال الجباية ومنتهبين له ومانعين لحقوق الناس وغصاب للاملاك على العموم.

وأشد ما فى الظلم تسخير الرعية بغير حق للعمل بغير مقابل وهى المعروفة بالسخرة الى عهد قريب. وأشد ظالما منهم أيضا الذين يغرمون الناس فى متاجرهم بشراء مابين أيديهم بابخس الاثمان وهذا كله يؤدى الى انكماش الناس عن العمل واختباط السوق وقلة الاقوات وتفشى المجاعات

فهو ينصح اذن بتخفيف البطانة والاقلال من عدد أصحاب الوظائف ورفع الظلم بأنواعه وفى جنب هذا كله تأييد السلطان حتى تبقى هيبته فى النفوس وتطيعه الرعية ويؤدى كل عمله كاملا.

* * *

هذه خلاصة آراء ابن خلدون الاقتصادية ملخصة مريعا وعجيب انه لم يلتفت الى وزنة النقود اقتصاديا بل جعل الحجرين المتعينين الذهب والفضة (قيمة لكل متمول لانهما الذخيرة والقنية لاهل العالم فى الغالب وان اقتنى أحد سواهما فانما لقصد تحصيلهما بما يقع فى غيرهما من حوالة الاسواق التى هما عنها بمعزل) - لكننا نعلم اليوم أنهما ليسا بمعزل عنها مطلقا لانهما بضاعة كسائر البضائع ولكن السوق المالية والقطر والصفحة لم تكن معروفة عنده.

* * *

يقول الغربيون أنهم لم يعرفوا ابن خلدون الا فى أوائل القرن الماضى وأول من ترجم شيئا من المقدمة سيلفستر دى ساسى المستشرق الفرنسى ولم يكتب علم الاقتصاد الا فى أواسط القرن الثامن عشر على مذهب الطبيعيين Les physiocrate ولكن كثيراً من آرائهم فى استقلال الطبيعة وتأييد الملك والمساواة بين الرعية وتخفيف المكوس كانت موافقة لآراء ابن خلدون كما أن رأيه البسيط فى النقود متفق فى كثير مع اصحاب مذهب ادخار النقد الكثير فى البلاد المعروفين باسم Mercautibstes بل هو أبلغ منهم اذ يجعل النقد غاية وهم يجعلونه اكبر واسطة اقتصادية

وعلى كل حال فانه من الغبن اذا انصف المؤرخون أن يغفلوا اسم ابن خلدون فى تاريخ المذاهب الاقتصادية

رئيس الجماعة خليلى شيبوب

التعليم العالى

ووجوب العناية به فى مصر

لحضرة المربية الفضلى السيدة نبويه موسى كبيرة المفتشات بوزارة المعارف سابقا
ومديرة مدرسة بنات الاشراف وعضو جماعة نشر الثقافة

أن الأمة كجسم واحد لابد له من أعضاء كثيرة تقوم بما يطلب منه من الحركة والعمل ورأس مفكر يدير هذه الاعضاء وينظم حركتها فالاعضاء العاملة فى جسم الامة هم السوقة وهم سوادها الاعظم أما الرأس فقادة الامة من علمائها ونبغائها وحكامها المتعلمين. ومن صلح الرأس واحسن التفكير توجهت كل أعمال الانسان الى الخير وصلحت احواله

فاذا اردنا بأمتنا خيراً وجب علينا أن نسعى فى تعليم قادتها ونبغائها تعليما صحيحاً عالياً يستطيعون معه ارشاد الامة الى مافيه الخير والمنفعة أما اهتمام الحكومة بالتعليم الاولى وحده فلا فائدة منه اذ اقتصرنا عليه وانما هو أساسى تبنى عليه دعائم التعليم العالى فاذا ظهرت كفاية الطفل فى التعليم الاولى تخطينا به الى ماهو اهل لمواهبه السامية أما اتفاق الحكومة جميع مالديها من المال فى التعليم الاولى وعدم تقديرها التعليم العالى حق قدره فمثلها فيه كمثل رجل أمامه نهير صغير وصحراء واسعة فأذا اغراه الطمع فحمل نوزيع هذا الماء على جميع تلك الصحراء ليصلحها جميعها ضاع هذا الماء فيها رشاشاً ولم يستطع أن يجنى من ذلك ثمرة ولم يخرج شجرة واحدة اما اذا عمل فكرته فأختار منها بقعة صغيرة صالحة فأصلحها ورواها بذلك الماء القليل فقد وصل الى غاية محمودة وأخرج بعمله هذا بعض الشجر والنبات حتى اذا كبر ذلك الشجر وتمكنت جذوره من الارض وأصبح لا يخشى عليه أمكنه أن يزرع غيره عاما فعاما فيأخذ منه البذر لغرس مأيريده فى المستقبل

والتعليم الاولى أو الابتدائى بدون التعليم العالى لاتأتى منه فائدة تذكر ولقد قيل فى المثل الانجليزى المعرفة القليلة شر من الجهل وليس هناك فرق بين فلاح فقير يعرف مبادىء القراءة وآخر أمى لا يعرفها مادام الثانى يقوم عمله فى حرث الارض وزرعها بمثل مايقوم به الاول ومافائدة معرفة القراءة للفلاح الفقير وليس لديه من الوقت مايمكنه من مطالعة مايفيده من الكتب كما أن كفايته العلمية لاتؤهله لفهم تلك الكتب النافعه فهو والفلاح الأمى فى المنفعة سواء ولا تتفهقر الأمة لجهل فلاحيها مادام فيها نبغاء يستطيعون ارشاد الفلاحين الى مافيه النفع ولا يعد الفلاحون عالة على الامة مادام يستطيعون نفعها بما تجنيه سواعدهم القوية من النجاح فى الزراعة فلهم من العلم بأصول عملها وتجربة مالايس لغيرهم وكل مايعرفه الانسان فيفيد به نفسه وامته يعد عالما نافعا. والفلاح الذى يستطيع انبات الفول والقمح أنفع للهيئة الاجتماعية من ذلك الفضولى الذى يستطيع كتابة هذه الكلمات فقط ولا يحسن غيرها فهو لا يستطيع نفع أمته بشىء بل هو عالة عليها وان اعتبر من غير الاميين

هذه جهم لامم الراقية قد جهل فلاحوها وسوقتها كل شىء حتى الكلام بلغتهم فقد يخطىء الفلاح الانجليزى فى التكلم بلغته حتى لا يستطيع أن يفهم كلامه المتعلمون وكذلك الفلاح الفرنسى فله من اللهجة فى الكلام مالا يفهمه المتعلمون من الفرنسيين وما دام هؤلاء الفلاحون يجهلون التخاطب بلغة العلوم فلا فائدة من تعليمهم مبادىء القراءة

أن الفلاح المصرى الفقير يقوم بعمله بنجاح قد لا يستطيعه امثاله فى اوروبا فهو فى مقدمة الفلاحين قوة ونشاطاً أما غناؤنا فهم أحط من أمثالهم فى البلاد الراقية علما ودراية فهم اولى بأن يعتنى بتعليمهم لأنهم من قادة الرأى فى الامة ولو تعلم كل عمدة التعليم الصحيح العالى لقاد أهل قريته الى سواء السبيل فنفعهم بعلمه ومباحثه وافادوه بقوة سواعدهم ومشاركتهم على العمل

ومن العبث أن نحج أمة لا يعرف نوابها الامبادى القراءة فتضطر الحاكم فى بعض الاحيان الى امتحان هؤلاء النواب كما يمتحن صغار التلاميذ ثم تقرر صحة انتخابهم اذا هم نجحوا فى ذلك الامتحان الصغير وكان الواجب أن يكون فى قانون البلاد مايحرم النيابة على غير الحاصلين على الشهادات العالية ليكون لهم شرف النيابة عن عامة الناس والدفاع عن حقوقهم والافلا معنى لأن يدافع جاهل عمن هو أكثر منه علما وان يدير شؤن البلاد جهلاء فى أعناقهم أطراق من لذهب وفى الامة من هم أعلى من هؤلاء علما ومعرفة

ومن المغالطة أن يقاس رقى الامم بعدد من يعرفون الحروف الهجائية فيها وانما يعرف رقى الامة بعدد نبغائها وسداد رأى قادتها فأن الأمة التى تفوز فى ميدان الحرب مثلا لا تجنى ذلك الفوز لمعرفة جميع جنودها مبادىء القراءة والكتابة وانما تحرزه بما يبديه قوادها من الرى السديد والحكمة فى تنظيم الجيوش وهذه انجلترا لم تسد فى مؤتمر السلام الذى عقد فى فرساى سنة ١٩١٩ لمعرفة فلاحيها القراءة والكتابة ولكنها سادت برأى وزير واحد أمكنه لنبوغه أن يؤثر فى نفوس غيره من أعضاء ذلك المؤتمر وساعده فى ذلك قادة الامة بالرأى السديد

لهذا كان من العبث أن نوجه عنايتنا الى التعليم الابتدائى فقط أو الاولى ولقد تغالينا فى ذلك حتى أصبح الناس ينادون بتعليم أولاد الباعة والخدم ومساحى الاحذية مع أن أبناء هؤلاء المصلحين الذين ينادون بتعليم السوقة لم يوفقوا فى التعليم الى أكثر مما وفق اليه السواد

لا يضر أمتنا أن يكون ابن الخادم خادما مثله ولكن يعوزها رجال اكفاء يسيرون بها فى مرافق الفلاح ولا سبيل الى نيل ذلك الا بالتعليم العالى الصحيح ومن العبث أن نحاول أن يكون خادمنا من المعرفة ما للخادم الغربى مالم نسم أن نتساوى معلومات اغنيائنا بمعلومات أمثالهم من الغربيين فان هذا الخطل فى الرأى قد يؤدى لان يكون الخادم أعلم من سيده وهو مالم يرض أمة من الامم. أننا فى حاجة الى تعليم اثنين من أهل القرى تعليما عاليا يليق بثروتهم لأنهم سيكونون فى المستقبل نواب الامة فى برلمانها وفى مجالس مديرياتها. نحن فى حاجة الى ذلك شد من حاجتنا الى تعليم خدمنا مبادىء القراءة لان بهؤلاء النواب ترقى الامة ويتشعر فيها التعليم اذ يرشدونها الى سواء السبيل

بقية موعى

رسالة

جماعة نشر الثقافة

كثيراً مايستعرض الباحثون الحالة الفكرية فى مصر فيخرجون بحقائق قد يجمعون على الاعتراف بها وأخرى قد يختلفون على اقرارها وقد لوحظ أن جميع الابحاث تتجه اتجاها عقيما رغم مايبدو فى ثنايا ها من ذكاء وبراعة ودقة، فالمنطق هو أساس الابحاث، والنظريات هى محور المناقشات. أما مجابهة الواقع وفحصه وأما تفهم حقيقة المركز الفكرى عندنا وأما محاولة التوفيق بين ظروفنا وحاجاتنا وأما التحرر من النظرة الضيقة لمشاكل التفكير الفرعية وتلمس مشكلة التفكير الاصلية فأمور مازالت بعيدة عن متناول الناقدين مع قدرتهم على طرقها وبحثها

ان حياتنا العقلية مازالت فى مهدها. بل لانكون مسرفين اذا قلنا انها لم تولد بعد. فالبيئة العلمية الصحيحة لاوجود لها بيننا.

والمثقفون فى مصر ثقافة كاملة يشير اليهم رقم متواضع والوسط المصرى العلمى وحده يعجز عن تكوين عالم جدير بحمل هذا اللقب وقليلون من يدركون هذه الحقائق والكثيرون يتوهمون أننا فى نهضة فكرية قوية لانهم لا يولون اهتمامهم الا شطر الادب أى شطر الناحية التى أنجبت مصر فيها قليلات وشخصيات تستحق التقدير والاعجاب. ولكن هل الادب هو كل شىء فى حياتنا العقلية، أليس الادب يمثل ناحية من النواحى المتعددة للثقافة؟

لقد تأثرت الناشئة الحديثة بالتيار الادبى وأصبحت لا تفهم من التثقيف الا تقليد احدى الشخصيات الادبية التى تستهوى فاهمل العنايه بتكوين ذواتها التكوين العلمى الصحيح وراحت تتخذ من التشور لبابا وتمارس الادب بمحيطها الجهل مما أساء الى الادب نفسه وأصبحت مقاييس التفكير عندنا مقاييس منحرفة

ان الانتاج الفكرى فى مصر قد يعطينا صورة ناطقة لحقيقة مستوانا. فهل أخرجت العقول المصرية حتى الان ما يتكافأ مع حاجتنا وهل يتاح لشخص مصرى أن يثقف نفسه ثقافة صحيحة من المصادر المصرية وحدها؟ اننا نؤمن ان انتاجنا أقل من طاقتنا. وفى هذا سلوى لنا. ولا يرجع ذلك الى عجز صفوة مفكرينا بقدر ماهو راجع الى ترددهم.

لقد جاء فى أول بيان أصدرته الجماعة عند بدء تكوينها هذه العبارة التى نستعيدها وهذا المقام:

« لقد خلقت هذه الجماعة الظروف الشاذة التى تكتنف المجتمع المصرى فى ناحية من أخطر نواحيه وهى الناحية الفكرية فالفوضى المنفشية بيننا والمتجسمة فى تشتت جهود أدبائنا. والمثقفين منا. ووقوف الانتاج الفكرى فى مصر عند حد لا يرضى الطموحين من المثقفين. ولا يعفف الذهن المصرى المتعطش الى كل ألوان التثقيف.

هذه الفوضى التى نحس بها جميعا احساسا عميقا تسىء الى المجتمع المصرى بقدر ماتسىء الى المثقفين من المصريين بصفتهم مسئولين عن تربية الشعب والسمو به من ناحية حياته العقلية الى المرتبة التى تجعلهم يباهو بالانتساب اليه »

لقد آن الاوان لندعوة ان الثقافة الصحيحة والعمل على تبديد الاوهام المسيطرة على الاذهان تجاه الابحاث العلمية والفلسفية والانسانية التى لقيت من الاعراض بل والتهكم ما تغضب له كرامتنا العقلية. ويثير الشفقة على موقفنا من المدنية العالمية.

ان تدارك هذه الحالة متوقف على الجهود التى تبذل فى سبيل نشر الثقافة بين أكبر عدد من الطبقات والافراد. لا لنخلق منهم جميعا علماء ومفكرين: وانما لنكون من بينهم طبقة مثقفة تستطيع أن تمد من أفق الحياة العلمية وتخلق جواً تتنفس فيه العقول. ويتنافس فى حدوده المثقفون. لتنتعش حياتنا الفكرية وتنتقل من عالم السكون والرقدة. الى ميدان النشاط والحركة.

لقد قامت حتى الان حياتنا الفكرية على المجهود الفردى. وهو عرضة لشتى المؤثرات أما التعاون الفكرى الذى يتمثل فى الهيئات والجماعات فلا عهد لنا به. ولا أمل لنا فى الاصلاح والبناء الا برفض الاساليب الفردية التى تعترف بها الاهواء. والاخذ بروح التعاون فى حياتنا الفكرية.

ان (جماعة نشر الثقافة) لم تكن ثمرة اقتراح مقترح. ولا دعوة داع. ولا تدبير مدبر. ولكن هى الظروف التى ذكرنا. والحاجة التى اوضحنا. والضرورة التى لمسنا. تكاثفت على الجماعة. وظهورها بمظهرها المعروف. والافلا معنى لمرحلة التوفيق الذى صادف الجماعة. وما معنى التقدم الحثيث الذى لازمها ولما ينقض حول على تكوينها؟ لا تفسير لذلك الا أن الرسالة التى تحملها الجماعة مستمدة من صميم المطالب التى تلح ببثنا فى تحقيقها.

اننا لا ندعى أن رسالتنا ترمى الى خلق معدوم. أو تشييد بناء محدود. أو اقامه صرح مرسوم. أو بعث مذهب معلوم. ولكنا نرمى الى تنظيم الموجود. وبعث القوى الكامنة فينا الى العمل والانتاج. وحث المترددين. تشجيع المغمورين. وتوجيه مجهوداتنا توجيها صالحا مثمراً.

ان آمالنا قوى وآمالنا كبير: فى تحقيق الرسالة التى اقدمنا على حملها. لانها لم تقم على مجهود الجماعة وحدها. بقدر ماقامت وتقوم على تأييد المفكرين. وتمضيد المستنيرين وتشجيع المثقفين.

وليثق هؤلاء جميعا أننا نقدر ما أولونا من ثقة. وما أمدونا من معونة قيمة. ولا نملك الآن ما نتقدم به اليهم الا عهداً نقطعه على أنفسنا. وميثاقا نأخذه علينا بأن تكون أداء وحافظها أوفياء مخلصين

شخصية الوقف

واثارها

بقية المنشور على صفحة

بصفة عامة فأذا أردنا أن نرسم حدود هذه الوكالة وجب أن نمهد لذلك بذكر قاعدتين شرعيتين

القاعدة الاولى : لايمثل الناظر جهة الوقف الا فيما يعود عليها بالمنفعة فأذا باشر تصرفا يدخل فى حدود نيابته عنها ولكن باشره على وجه معيب من شأنه أن يعود بالضرر على مصالح الوقف. فان هذا التصرف لايلزم الوقف وقد يلزم الناظر شخصيا لانه وقت أن باشره لم يكن يمثل الوقف (راجع المادة ١٨٠ من كتاب الوقف لقدرى باشا والمادتين ٢٣٨ — ٢٣٩ من كتاب تنقيح الحامدية)

ومرجع هذه القاعدة أن فقهاء الشريعة الاسلامية شبهوا الوقف بالقاصر والناظر بالوصى ورتبوا على ذلك أن خطأ الناظر لاتترتب عليه مسئولية جهة الوقف (راجع تنقيح الحامدية المواد ٢٣٨-٢٣٩-٢٤٠)

وقد يلاحظ الباحث فى هذه القاعدة اضراراً بحقوق من يتعامل مع الوقف وهذا صحيح ولكن تبرره صيانة حقوق جهة الوقف وهى كالقاصر جديرة بالضمانات الشرعية والقانونية وتبرره كذلك ضرورة حماية الوقف من تصرفات سيء النية من النظار

ولقد رأينا من لوازم البحث أن نتعرف الى أى حد يأخذ القضاء المصرى (الاهلى والمختلط) بهذه القاعدة الشرعية فراجعنا المجموعات القضائية فلم نعثر على رأى مخالف الا حكما واحداً أصدرته محكمة الاستئناف الاهلية فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٨ ونشرته مجلة المحاماة السنة التاسعة ص٢٢٥ وقد جاء فيه

(اذا صدرت من ناظر وقف وهو يعمل لمصلحة الوقف تصرفات ضارة بمصلحة أى شخص. فان الوقف مسؤول عن دفع التعويضات والقول بحصر المسؤولية فى الناظر شخصيا لايتفق مع مبادىء العدالة لان هذا الرأى يهدم الحق وتضيع به حقوق كل من اصيب بضرر من ناظر غير ملىء بعمل من أعمال نظارته)

ومن البديهى أن هذا الحكم لم توجبه الا الرغبة فى ارضاء مقتضيات العدالة فى القضية التى صدر فيها ولذلك فانه مهما كانت الدوافع التى دعت الى اصداره شريفة فانه لايؤثر فى القاعدة الشرعية شيئا ولا ينبغى تحولها فى وجهة نظر القضاء.

ولقد كان فى مقدورنا أن نثبت عشرات الاحكام التى تؤيد القاعدة المتقدمة ولكنا نكتفى باحالة القراء الى احكام محكمة الاستئناف المختلطة الصادرة فى ٣١ مارس سنة ١٩٢٧ و١٦ مايو سنة ١٨٩٤ و ٧ مايو سنة ١٩٢٥ وقد أشار اليها الاستاذ جبرائيل بسطروس فى كتابه تعليقات على القانون المدنى المختلط جزء أول ص ٣٨٧ نبذة ١٦٥.

ومن أهم التطبيقات العملية لهذه القاعدة حالة ماذا أوقع دائن لمستحق حجزاً تنفيذيا على استحقاق مدينة تحت يد النواظر وكلف الاخير ايداع الاستحقاق فى الخزينة والتقرير بما فى ذمته فى ظل كتاب المحكمة فلم يودع النواظر ولم يقرر غشا منه وتدليسا فرفع الدائن الدعوى التى تقررها المادة ٤٨٧ مرافعات التى تقضى بالزام المحجوز تحت يده بدفع الدين المحجوز من اجله من ماله الخاص

هل يقضى فى هذه الحالة بالزام الناظر بدفع الدين بصفة الشخص ومن ماله الخاص أو بالزامه بصفة ناظر الوقف ومن مال الوقف ؟

قضى فى هذه الحالة بالزام الناظر بصفته الشخصية ولو أن الحجز متوقع تحت يده بصفته ناظرا لان خطأ الناظر لايلزم الوقف ولان الناظر لا يمثل جهة الوقف الا فيما يعود بالمنفعة

(راجع حكم محكمة الاستئناف المختلطة الصادر فى ١٧ ابريل سنة ١٩١٣ ومنشور بمجلة المحاكم المختلطة لسنة ٢٥ ص ٣١٣)

القاعدة الثانية : الوقف لاذمة له

قرر فقهاء الشريعة الاسلامية هذه القاعدة الكلية ويقصدون بها أن ذمة الوقف لا يمكن اشغالها أو بمعنى أوضح ان الوقف لا يمكن أن يكون مدينا

ويجب ان نقيد أن الفقهاء استثنوا من هذه القاعدة حالتين الاولى حالة المرض وهو الدين المستحق لمن اجرى عمارة فى الوقف والثانية حالة الدين الذى استدانه الوقف بامر القاضى

فاذا استدان الناظر باسم الوقف فى غير هاتين الحالتين فان الدين لايلزم جهة الوقف لان الاستدانة — ولو كانت تقتضيها ادارة الوقف — خارجه عن حدود وكالة الناظر

والوقع ان هذه القاعدة تمت للقاعدة الاولى بسبب وهو وحدة الدافع الى تقرير كل منهما وهو الرغبة فى حماية مصالح الوقف من الناظر ومن الغير باعتبار الوقف فى حكم القاصر جديرا بالرعاية القانونية

وهذه القاعدة تنظم الى حد بعيد حق المستحقين فى اقتضاء الناظر استحقاقاتهم فاذا تأخر المستحق استحقاق فى ذمة الناظر كان الناظر مسؤلا دون الوقف واذا عزل ناظر وفى ذمته استحقاق لم يكن للمستحق المطرول أن يرجع على جهة الوقف أو على الناظر الجديد واذا أراد مستحق تنفيذ حكم صادر له باستحقاق على الناظر لم يكن له أن يوقع الحجز تحت يد مستأجرى الاطيان الموقوفة لان أيديهم للوقف لا للناظر

كل ذلك لان الوقف لاذمة له ولان الناظر لايمثل الوقف الا فيما يعود عليه بالمنفعة ولان خطأ الناظر لايؤدى الى مسؤولية الوقف (راجع هذ المباحث فى حكم محكمة الاستئناف المختلطة الصادر فى ٣١ مارس سنة ١٩٢٧ ومنشور فى مجلة المحاكم المختلطة السنة ٣٩ ص ٣٥٧ تطبيق القاعدتين المتقدمتين

فى ضوء هاتين القاعدتين نستطيع أن نتعرف طبيعة وكالة الناظر عن جهة الوقف فنقول انها وكالة محدودة من نوع خاص تقيدها الضوابط الآتية

أولا — لايمثل الناظر جهة الوقف الا فى الاعمال الخاصة بالادارة

ثانيا — لايمثل الناظر جهة الوقف الا فى الحدود التى رسمها كتاب الوقف

ثالثا — لايمثل الناظر جهة الوقف الا فى الاعمال التى تعود عليها بالمنفعة

رابعا — ليس للناظر أن يشغل ذمة الوقف بدين الا فى حالتى المرض أو الدين الذى يستدينه الوقف باذن القاضى

الخلاصة

وخلاصة البحث أن للوقف شخصية معنوية تتبع جنسية البلاد التى تقيم فيها الاعيان الموقوفة وأن لجهة الوقف اهلية قانونية يمثلها الناظر وهو بمثابة وكيل منوط بادارة الوقف على وجه محدود بالضوابط المستمدة من القواعد الشرعية التى تصرف فى حماية الوقف حتى لتعتبره فى حكم القاصر الجدير بالعناية والرعاية

زكريا العزونى المحامى عضو الجماعة

كاميل تلعن روما

للشاعر الفرنسى «كورنيبل»

قلت روما فالها غول القضاء ... وجرى الدهر عليها بالعفاء
ليتها زلزلت الارض بها ... ورمتها بالردى شهب السماء
آه ما أبغضها من بلد ... ذكره شؤم وكرب وبلاء
أهمل السيف أخى من أجلها ... فى خطيبى وحبيبى والرجاء
فى سبيل الذود عنها مارعى ... حرمة الاخت ولاحق الاخاء
آه ما أحراك ياروما لدى ... نفسى الوطنى ببغض وازدراء
لاتجلين سواه من فتى ... ناقد الطعنة فياض الاباء
مقدم فى الروع يحدوه الى ... ساحة الكرئبات ومضاء
ويح نفسى . يد أهلى فتكت ... بخطيبى . فعلى الدنيا العفاء
سفكوا فى نصر روما دمه ... رحمة الله على تلك الدماء
مزقوا صدراً بحبى عامراً ... وفؤاداً بغرامى قد أضاء
قطعوا أحشاءه ياويلهم ... وصلوا قلبى بأسياب الشقاء
ايه ياجبران روما حطموا ... تلكم الاركان فيها والبناء
فاذا أعيتكموا فادعوا لها ... أهل (ايطاليا) رجالا ونساء
أو فهاتوا الشرق والغرب معا ... وخذوا الارض عليها والفضاء
دمروها لاتخلوا جبلا ... قائما فيها ولا جدول ماء
دكها يارب واطمس رسمها ... وطوها بين صباح ومساء
ثم صبحها رماد وثرى ... فى فضاء الجو يذروه الهواء
عندها تأرى فهل أدركه ... ثم أقضى النحب من بعد الوفاء ؟
وألاقى فى الثرى من سفكوا ... دمه ظلما ونحيا بالتقاء
تحت ظل الله فى فردوسه ... فى مغانى الانس فى دار الصفاء

وديم جبران

عضو الجماعة

شارع ابو الريش بالفجالة

مدارس الشعب

القسم الداخلى

تليفون ٥٧١٣٠

المدرسة الابتدائية (بنين بنات) ورياض الاطفال

المدرسة الثانوية

صحى . مجهز بأفخر الاثاث . العناية باخلاق الطلبة شديدة : المذاكرة الليلية تحت رقابة مدرسى المدارس . مصروفاته مخفضة .

شرفوا مدارسنا تتحققوا الصدق فى القول والاخلاص فى العمل

ابتدأت الدراسة يوم ٥ سبتمبر باقبال عظيم نظراً لحسن النتائج . مدرسوها ومدرساتها فنيون

بها أقدر مجموعة من المدرسين الفنيين . نتائجها باهرة ومصروفاتها معتدلة

الافتتاح ٣ اكتوبر

ديوان التحقيق (محاكم التفتيش)

والمحاكمات الكبرى

للاستاذ محمد عبد الله عنان المحامى

فيه تاريخ مسهب لديوان التحقيق ونظمه ومحاكماته وبالاخص محاكمات العرب والعرب المتنصرين فى الاندلس . ثم مجموعة كبيرة من المحاكمات والقضايا الكبرى ملوكية وغيرها فى ٥٥٥ صفحة من القطع الكبير ، ومزين بخمس وخمسين صورة تاريخية طبع بمطبعة دار الكتب . وثمنه ٣٥ قرشا عدا البريد .

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة بشارع الساحة ومن جميع المكاتب الشهيرة

ابن المقفع وآثاره الادبية

تلخيص محاضرة الاستاذ احمد امين

استاذ الادب العربي بالجامعة المصرية

القيت بنادي موظفي الحكومة بالاسكندرية في شهر اغسطس سنة ١٩٣٢

وهي احدى المحاضرات الجامعية التي نظمتها الجامعة بالاسكندرية

لم تعرف دول الاسلام الوزارة الا في العصر العباسي . أما في عهد الراشدين والامويين فقد كان الوزير يسمى بالكاتب وهكذا كان عبد الحميد الكاتب كاتبا لمحمد ابن مروان آخر الخلفاء من بني أمية فكان يقوم بمنصب الوزارة

لم يعرف هذا المنصب اذن الا في عهد العباسيين وكان الوزير يقوم بمهام الخلافة ولم تكن مفصلة بل كان يدير الشئون المالية والداخلية والزراعية والحربية ولم يكن التقسيم بين مختلف الوزارات معروفا الا عند الاندلسيين

ولما كان على الوزير أن يضطلع بمهام الخلافة كلها وأن يتولى الوزارات معاً فقد كان لا بد له من سعة الاطلاع والمعرفة بأنواع العلوم المختلفة ولا بد أن يكون عالما بأسرار البلاغة والبيان . ولذلك لقب كثير من الوزراء بانهم أرباب السيف والقلم . وكان الفضل بن سهل يلقب بذي الرياستين أي رياسة السيف ورياسة القلم .

كانت ظاهرة غريبة في ذلك العصر العناية بالبلاغة في الرسائل . وكان الكاتب يتأنق في كتابتها ويتمهل في ترتيبها ويصوغها في عبارة حرلة .

كان للبلاغة اذن حظ كبير في ذلك العصر وكانت من أهم مؤهلات الوزارة وقد روي أن عمرو بن مسعدة رد مرة ردا حسنا فقال له الخليفة اذ ذاك « أي وزير في يدك » وهو يريد أن عبارته البلاغية ترشحه في المستقبل أن يكون وزيراً .

كان لهؤلاء الوزراء أعوان يعرفون بالكتاب فكان لكل وزير كاتب ولكل والٍ كاتب كما كان للاغنياء كتاب يكتبون لهم في شئون مختلفة واذ كان الكاتب عليه أن يكتب في شتى الفنون واضطر أن تكون ثقافته ثقافة واسعة .

وهم لو قيسوا بغيرهم من معاصريهم — لو قيسوا بالفقهاء والعلماء لوجدنا أن معارف هؤلاء محصورة في دائرة علمهم . وأما الكاتب فقد كان مضطراً الى الالمام بكل علم وفن . ولما كان الكتاب يخوضون غمار السياسة ويتعرضون لاخطارها فقد اضطروا الى التعاون فكانوا على صلة جماعية شبيهة بما نسميه اليوم بالنقابة . ولهذا كتب عبد الحميد الكاتب وصيته المشهورة للكتاب : واضطر المؤلفون أن يؤلفوا لهم كتبا خاصة وأقدم ما نعرفه منها كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة . وقد ذكر في مقدمته انه وضعه لطائفة الكتاب اذ رأى سوء ما وصلت اليه حالتهم وقد عنى بعده بمثل ذلك طائفة كبيرة من المؤلفين فأبو بكر الصولي وضع كتابا بعنوان أدب الكاتب وابن درستويه الف كتاب (الكتاب) ومازال الناس يعنون بهذه الطبقة حتى ظهر مؤخراً كتاب (صبح الاعشى) للقلقشندي ويقع في أربعة عشر جزءاً ألم فيها بكل مايجب على الكاتب معرفته

كان هؤلاء الكتاب اذن يكونون طائفة خاصة بهم ولهم رابطة تجمع بينهم وقد روى أن أحد الكتاب تقدم في السن وكانت له حاجة عند بعض الوزراء فهيأ له اخوانه الكتاب سبل مقابلة الوزير

وبعد أن قضى حاجته قال لهم وهو خارج من عند الوزير أوصيكم بثلاث : الجوار نسب والمودة نسب ، والصناعة نسب »

كان على الكاتب اذن أن يلم بكل الشئون وأن يجمع كل المعارف ولعل هذا هو السبب في أمرين :

الاول انهم قالوا في ذلك العصر « ان الادب هو الاخذ من كل شيء بطرف » لان الكتاب لما كان عليهم أن يعرفوا كل العلوم فقد وسعوا دائرة الادب حتى أدخلوا فيه لعب الصولجان والشطرنج والنرد

والثاني هو أن كتب الادب في ذلك العصر كانت فرضى ومن هذه الكتب «عيون الاخبار » و« البيان والتبيين » فقد كانوا اذا أملوا بمسألة لا يلبثوا أن يخرجوا منها الى غيرها لا تتصل بها كثيراً — ذلك لان الفكرة الاساسية كانت جمع معلومات كيفما اتفق لانها ألزم للادب وبعبارة أخرى للكاتب

فان هؤلاء الكتاب والوزراء فرساً بكان أبو مسلمة وزيراً لابي العباس السفاح وكان أبو أيوب وزيراً للمنصور وكان يعقوب بن داود وزيراً للمهدي وكان البرامكة وزراء للرشيد والفضل بن سهل وأخوه الحسن بن سهل وزيرين للمأمون وكان كل هؤلاء فرساً والسبب في ذلك أن الفرس كانوا أمة قديمة في الحضارة ، قديمة في العلوم والمعارف وكانوا يعنون بالعلوم والكتابة وأما العرب فقد كانت حضارتهم حديثة وكانوا يعنون بالفخر والفصاحة . كانوا يفخرون بالسيف والنسب وكانوا يقدرون الفصاحة اللسانية أكثر من تقديرهم البلاغة الكتابية . لذلك قالوا « فلان لسن » لانهم أهل لسان ولم يشتقوا من أساليب البلاغة الكتابية ما يدل عليها . وقد ذكروا أن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان كان يدل على زياد بن أبي سفيان بقوله : « تقلناك من القلم الى المنابر » أي أنهم نقلوه من الكتابة الى الخطابة لانهم كانوا يعدون الخطابة فخراً فكانت الخطابة مثيرة العرب وكانت الكتابة مثيرة الفرس

لذلك كان أكثر الكتاب والوزراء فرساً وكان من بينهم رجلنا الذي نتكلم عنه اليوم عبد الله بن المقفع

فنستطيع أن نتحدث عن ابن المقفع من وجوه متعددة . يمكننا أن نتحدث عن حياته ونشأته وسيرة وقتله . ويمكننا أن نتكلم من ناحيته البلاغية وأثره في أسلوب كتاب عصره ويمكننا أن نتكلم عن تآليفه وهو موضوع محاضرة اليوم

كان ابن المقفع فارسيا مجوسيا واسمه بالفارسية « روزبه بن دودة » نشأ كاتبا زياد شتياً وتثقف ثقافة مجوسية ثم تثقف ثقافة فارسية عربية وكان كاتبا لداود بن عمر بن هبيرة في عهد الدولة الاموية في آخر حكمهم في عهد محمد ابن مروان آخر خلفائهم ثم كتب لاعمام أبي جعفر المنصور فكتب لعيسى بن علي بن عبد الله ابن العباس . وقالوا انه انهم بأنه كان يحرض عمر أبي جعفر المنصور على أبي جعفر . وقالوا انه لما خرج عيسى على أبي جعفر ثم اصطلحا كلف ابن المقفع بكتابة العهد بالامان لعيسى فتشدد ابن المقفع في كتابة العهد مما جعل المنصور يرتاب به ويحنق عليه حتى أمر به فقتل شر قتلة . قتل ولم يتجاوز الثانية والاربعين من عمره عام ١٤٢ هـ وقيل ١٤٣ وقيل ١٤٥ على اختلاف بين العلماء

أما آثاره الادبية فهي « الادب الكبير » « والادب الصغير » و« الصحابة » وكليلة ودمنة

أما الادب الكبير والادب الصغير فالكبير والصغير فيهما نعت للكتاب لا للأدب . وقد شاعت هذه الصيغة كثيراً فنجد مثلا (كتاب الطبقات الكبير) لابن سعد ولو كان الكبير وصفا للطبقات لكان عليه أن يقول الكبيرة . وقد يحذفون كلمة الكتاب (السير الكبير) و (السير الصغير)

ومن المؤكد ان لابن المقفع كتابا يسمى (الدرة اليتيمة) اشتهر بين الكتاب بانه الادب الكبير . ولكننا نرجح انهما كتابان مختلفان بدليل ان ابن قتيبة يستشهد في كتاب عيون الاخبار تارة بالادب الكبير وتارة بالدرة اليتيمة وان الباقلاني يقول ان في الدرة اليتيمة جزءاً كبيراً عن الديانات مما لانجده في الادب الكبير لذلك نرجح انهما كتابان مختلفان وان الدرة اليتيمة مفقود .

الادب الصغير عبارة عن جمل لا اتصال بينها في الغالب . حكمة تلوها حكمة . وهكذا الى آخر الكتاب فحكمة في الصدق وأخرى في الدين وأخرى في غير ذلك . ولاشك ان المؤلف كان يدون مايقع في باله وانه كان كلما وقعت في نفسه فكرة أو طالع حكمة قيدها . ولذلك لانه كان أحيانا يقولها كأنها من عنده وأحيانا يذكر (وقالت العلماء) وأحيانا (وقالوا)

وأما الادب الكبير فهو أوفر ترتيبا وأطول مجالا من الادب الصغير ويشمل فكرتين وان لم يكن هناك رابط يجمع بينهما . الاولى السلطان والولاة والثانية الصديق .

أما اهتمامه بالسلطان والولاة وما اليهما من أمهام الدولة فلانه كان كاتبا لاعمام أبي جعفر منصور وكانت لهؤلاء الاعمام ثورات على المنصور وكان ابن المقفع يدبرها ويشاهدها وكان ملماً فيها . وأما الصداقة فلانه كان يقدرها أدق تقدير ولانه كان بحاجة الى صديق وفي مخلص له لانه كان سياسيا وكان مجوسيا انتقل الى الاسلام قبل أن يقتل بسنين فكان حائراً بين الدينين وكان بحاجة الى صديق يثق به فيفضي اليه بدخائل نفسه وكان يشترط في الطريق شروطا في منتهى الدقة ويتشدد في الصداقة وفي اختيار الصديق الذي كان يراه مرآة لنفسه

ولابن المقفع رسالة أخرى في منتهى الاهمية لا يعرفها كثير من الناس هي رسالة (الصحابة) وليس معنى الصحابة هنا صحابة رسول الله وانما معناها صحابة الخليفة أو من نسميهم اليوم بالمعية .

وهذه الرسالة تقرير قدم لامير المؤمنين ولم يذكر اسمه وانما يمكننا أن نستنتج انه أبو جعفر المنصور لانه يذكر ان الدولة الاموية قد زالت وان أبا العباس قد مات . ولانه قتل في عهد أبي جعفر المنصور فيكون هذا الاخير هو أمير المؤمنين الذي رفع اليه ابن المقفع تقريره .

ويشتمل هذا التقرير على نقط كثيرة أهمها أربع :

أولها الجند : وذلك لان الدولة العباسية كانت في أوائل عهدها وكانت بحاجة للجند لتوطيد أركان ملكها . وهو يوصيه خيراً بالجند الخراسانية لانه فارسي ولان هذه الجنود فارسية . ويقول انهم خير جنود العالم صناعة ويقترح اضلاعات عدة منها أن يوضع لها كتاب خاص يحفظ قوادهم ويعلمونه لصغارهم لانه لابد من أن يكون للجند ثقافة كافية . ويوصي الخليفة بان يبعد بين الجنود وبين ولايات الخراج لان العباسيين كانوا يولون أمراء الجيش جمع الخراج وهو يرى أن المال مفسد للجندية ويشير بان يعين يوما خاصاً تصرف فيه المرتبات وأن يكون الخليفة كثير الاطلاع على أحوالهم حتى يعرف اخبارهم ويحتاط لثوراتهم

ثم انتقل بعد ذلك الى مسألة التشريع وهي ثانيتها فقال ان القضاة ليس لهم قانون يرجعون اليه وقد ترك أمرهم الى الاجتهاد فاصبح الامر فوضى بحيث اختلف الحكم بين القضاة فقاضي الكوفة مثلا يحكم بغير ما يحكم به قاضي مدينة أخرى في مسائل متشابهة وقد

ترتب على ذلك ان الناس لا يعرفون كيف يدافعون عن نفسهم . وكان القضاة قسمين قسم يحكم بالسنة وقسم بالقياس . وشرح هذا شرحا مستفيضا واقترح علاجا وهو ان الامر الذي أجمع عليه المسلمون يدون والمسائل التي اختلف عليها العلماء يتولى الخليفة جمع جماعة من العلماء يختارهم ويقيدون الاحكام ويلزم القضاة ان يحكموا بمقتضاها واذا ظهرت مسألة جديدة يفصل فيها وتضاف الى ماتقدمها . وهذا الاقتراح لم يعمل به في كل عصور الاسلام الى أن خرج القضاء من يد الشرع الى المحاكم المدنية . على أن أبا جعفر المنصور طلب من الامام مالك أن يجمع الاحكام ليوزع على الانصار وطلب اليه ذلك هارون الرشيد ولكن الامام مالكا أبى وكانت حجته ان هذا الالزام ينافي اجتهاد القضاة

اما الامر الثالث الذى عرض له ابن المقفع فى هريره فالخراج فطلب من الخليفة أن يمسح الارض ويبين الجيد والردى منها ويقيدها ثم يوزع الخراج عليها وفقا لنوعها .

وأما النوع الرابع والاخير فالصحابة . وهو يشترط فيها شرطين : أولها الكتابة والمقدرة العقلية والنزاهة ومن اليها من المؤهلات . وثانيها وقد تأثر فى هذا الشرط بالفرس أن يكونوا من أصحاب البيوتات الكبيرة وذوى الحسب والنسب .

ويلاحظ فى هذه الرسالة انه أدخل عليها كثير من التحريف بحيث جاءت كتابتها فى غاية الغموض .

أما كتاب كليلة ودمنة فانه حديث طويل يضيق عنه الوقت وربما كانت له فرصة أخرى .

وقد عنى المستشرقون كثيرا ببحث هذا الكتاب ودرس ابن المقفع . وفى عام ١٩٢٧ قررت المؤسسة الايطالية للعلوم الاسلامية يوما رسالة عنوانها (كتاب فى الرد على الاهين ابن المقفع أخزاه الله للقاسم بن ابرهيم عليه من الله أفضل الصلوات والتسليم) وهذا الكتاب يقع فى خمس وخمسين صفحة نشره الاستاذ جويدى وفيه فقرات صغيرة لابن المقفع يرد عليها القاسم ورأى المحاضر ان هذه الفقرات ليست لابن المقفع والدليس للقاسم بن ابرهيم لان الاسلوب فى منتهى السخافة فهو مسجوع وهذا غير عادة الكاتب ولاننا نجد فيه ان ابن المقفع يستهزىء مثلا فيما ورد فى كتب الدين من أن لله يدا ووجها وانه استوى على العرش وكان ابن المقفع قديرا فى اللغة بحيث أن العلماء لم يأخذوا عليه سوى لحنة واحدة فى مسألة مختلف عليها وهى ادخال ال على بعض وكل ، فمن كانت هذه مقدرته لا يخفى عليه أن استعمال الوجه واليد لله وانه على العرش استوى امر ذلك كله من باب المجاز والكتاب كله يرمى ابن المقفع بانه لادينى . بدين مع أننا نعرف انه كان متمسكا بدينه . وقد رووا انه لما اعتزم الاسلام كان ذلك فى المساء فارجأ انتقاله اليه الى اليوم التالى رابى أن يبيت على غير دين فبات ليلته يزمزم على عادة أهل الفرس فى صلاتهم حتى اذا أصبح اعتنق الاسلام .

كذلك ليس الكتاب للقاسم الذى كان فى عصر الجاحظ والكتاب كله مسجوع والسجع على هذا النحو لم يعرف الا فى القرنين الخامس والسادس للهجرة .

وقد اتهم ابن المقفع بالزندقة واستدل متهموه على ذلك بحوادث وأقوال معينة ولكننى أخشى أن يكونوا قد أولوا اقواله بما لا تحتمله من التأويل . فمن ذلك انهم ذكروا انه بعد أن اعتنق الاسلام مر يوما ببيت النار الذى يتعبد فيه المجوس فأنشد

يادار عاتكة التى اتمزل
حذر العدى وبه الفؤاد موكل
انى لأمنحك الصدود وانى
قسما اليك مع الصدود لأميل

وانه رثى مرة صديقا له فقال :

رزئت أبا عمر ولا حى مثله
فالله ريب الحادثات بمن وقع
فان تك قد فارقتنا وتركتنا
ذوى خلة مافى انسداد لها طمع
فقد جر نفعا فقدنا لك اننا
أمنا على كل الرزايا من الجزع

والمقصود البيت الأخير الذى استدلوا منه على زندقته لانه خلط فيه الخير والشر على عادة المجوس على أنه ليس هذا الخلط أمرا تفرد به المجوس لعبادتهم المزدوجة بل انه شائع . قال الله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما)

ولا يمكننا الحكم على عقيدة ابن المقفع لانه من الصعب أن نحكم على أقرب الناس الينا وانما نقول انه كان كبير الرأى نبيل النفس عالى الهمة وانه كان ينفق مما يكسبه متصدقا . ولا أدل على نبالة نفسه من حكايته مع صديقه عبد الحميد الكاتب وقد ذكروا أنه حين طلب عبد الحميد الكاتب كان مع ابن المقفع نفاجأهما الطلب وهما فى بيت فقال الدين دخلوا عليهما أيكما عبد الحميد فقال كل واحد منهما (أنا) خوفا من أن ينال صاحبه مكروه . وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع فقال ترفقوا بنا فان كلا منا له علامات فوكلوا بنا بعضكم ويمضى البعض الاخر ويذكر تلك العلامات لمن وجههم ففعلوا وأخذ عبد الحميد

ومن كانت هذه نفسه فيصعب علينا اليوم أن نرميه بالزندقة وعلى كل فاننا نترك أمره لله وهو خير الحاكمين

مطلوب موظفون

متجولون بمرتبات ومشروط موافقة لتوزيع الاوراق المالية بالتقسيط لحساب

بنك نداوخلفون وشركاهم

المركز الرئيسى بالقاهرة بشارع المناخ نمرة ١٧ تليفون ٤١٧٧٩ ص.ب. ٢١٠٤
فرع الاسكندرية بشارع أدب نمرة ٤ « ٤٢٤٢ « « ٤٨٣

وليكتب مندوبون فى جميع مديريات القطر المصرى - مبيع ومشترى أوراق مالية بالنقد والتقسيط

والمخابرة بالحضور شخصيا لمركز البنك الرئيسى وفروع الاسكندرية

النزعة الروحية

فى دراسة العلوم الحديثة

تلخيص محاضرة الدكتور على مصطفى مشرفه وكيل كلية العلوم

ألقيت باسم جماعة نشر الثقافة

... أراد الشاعر الانكليزى رديارد كبلنج أن يعلل الاهمية الخاصة التى يعطيها البشر للمادة فقال أن أحد أجدادنا القردة — وهو يعتقد أن أجدادنا كانوا قردة — كان يقفز من شجرة فأمسك بغصن من أغصانها فمنعه ذلك من الهبوط ومن هنا نشأ تعلق الانسان بالمادة بالوراثة عن أجداده . وفى هذا التخيل عمق ران لم يرد به تعليلا علميا لانه شاعر يضم الرموز فحسب وكانا يعلم أن المسائل المادية لها فى نظرنا أهمية خاصة ، أما الجانب الروحى فى الانسان فهو جانب دقيق فان تصور الانسان لمجرد الكلام يترك فى نفسه أثرا أما اذا حولت موضوع كلامه الى مادة فان ادراكه لها يترك فى نفسه أثرا عظيما

هل الحياة اذا حللناها كانت مادة فحسب ؟ الحياة هى خبرة الفرد وكل ماعدا هذا فروض يفترضها الانسان . الحياة التى أجزم بصحتها هى التى تدور بخلدى فهى حقائق بالنسبة لى . أشجانى وأحزانى وأفراحى أشياء قائمة فى نفسى ولكن هذا الكرسى وما أشبه من الماديات أشياء لا أستطيع الحكم على حقيقتها الا عن طريق مايدور بخلدى فالمادة اذن قرض من القروض الحقيقة اذن قائمة فى الانسان والمادة فرض من القروض يخترعها الانسان

كان علماء القرن الماضى يعرضون بالمادية فى نظر الفلاسفة والادباء . وكان هؤلاء العلماء أنفسهم مسئولين عن هذه التهمة الى حد كبير لانهم كانوا لا يفكرون الا فيما هو مادى فكانت هذه التهمة اذن مبنية على شىء من الصحة . والواقع أن من يتتبع نهضة العلوم الحديثة يجدها أشبه برد فعل ورجوع الى حالة عن حالة هى ضدها . العلوم الحديثة نشأت كثورة على رجال الدين لا على الدين نفسه . كانت وجهة نظر رجال الدين روحية وكان طبيعيا ان تكون نهضة العلمية — وهى رد فعل لها — فى جانب المعارضة

كان جليليو يريد المادة عندما اراد أن ينظر الى السماء بالمنظار وأراد كوبرلنج المادة كذلك وأراد هو من بعده المشاهدة لما هو حق واذا قلنا المشاهدة المباشرة فاننا نعنى المادة وما هو فى حكم المادة لانهم كانوا يعتقدون انه ما ليس ماديا فمحال وغير ميسور وعلى هذا بنى علماء القرن الماضى ابحاثهم وتوالت نهم الانتصارات فحللت المادة وبحثت ووضعت وصيغت القوانين التى تنظم سيرها

فى القرن الماضى كان العلماء الماديون فى موقف قوى . تصوروا رجلا نجح فى حياته العملية ووصل الى نتائج حسنة . هذا الرجل بلا شك سيكون فخورا بنفسه . وهكذا كان موقف العلوم وقصد العلوم الطبيعية ولا أعنى ما قد يدخل معها فى الحكم كعلوم الحيوان وغيره ولكننى لا أستطيع التكلم عنها لانه ليس لى مؤهل فى التكلم عنها

كانت العلوم اذن فى القرن الماضى مادية وكانت ناجحة وكان نجاحها الى حد كبير فمن ذلك : قياس الاجرام السماوية وعمل الحساب والتنبؤ عما سيحدث لها قبل حدوثه بسنوات وكذلك فى سائر العلوم الطبيعية كلها كان انتصارا عظيما للعلماء وللطريقة العلمية كما استمرت الحال كذلك الى أوائل القرن الحالى ولاسباب ظهرت تافهة فى بادىء الامر ثم كبرت وفطمت حتى ملأت الآفاق

ومن هذه الاسباب تفهمنا لحقيقة المادة ذاتها ذلك المعبود الذى أدى بنا البحث الحقيقى عنه الى الكفر به — لذلك لاسباب تغيرت آراء العلماء فى المادة منذ أوائل القرن الحالى .

كانت آراء العلماء فى القرن الماضى عن المادة أنها لا تحتاج الى تعريف وانها تتكون من الجزئية وانها غير قابلة للفناء وهذا سر تأليفها كان العالم فى نظرهم مكونا من ذرات سماها مكسويل بالطوب الاولى الذى بنى منه العالم كانوا يرون أن كمية المادة محدودة لا تتجزأ ولا تفنى فهى شىء أزلى وثابت كذلك الطاقة ولا تعريف لها عندهم — كانت فى نظرهم شيئا أزليا ثابتا

كان العالم اذن آلة كبيرة مؤلفة من عدة آلات وأجزاء فى حركة منتظمة وقد رأوا انهم فهموا تركيب هذه الآلة وفهموا قوانينها التى تنظمها وقد وصلوا الى كثير من هذه القوانين حتى ظنوا أنهم فقهوا سيرها ولم يبق عليها غير تركيب آلتها ولكن الدهر مملوء بالمفاجآت ففى الوقت الذى يظن فيه الانسان أنه قد تغلب عليه والذى تزيد فيه الغلواء وينتظر الانسان تمام النجاح تنشأ الصعوبات التى تبرهن له على مقدار البعد الشاسع عما ظن أنه وصل اليه

ازداد علماء القرن الحالى درسا للمادة فرأوا ان الذرة التى كانوا يظنون انها لا تتجزأ هى فى الواقع قابلة للتجزئة وقد توغلوا فى البحث فى هذه الاجزاء فوصلوا الى نتيجة غريبة وهى أن هذه الاشياء التى تتألف منها المادة تتكون من لاشىء

وهذا كلام من السهل أن يقال ومن السهل أن يسمع ولكن فهمه شىء اخر

افرضوا انى امررت مادة بين أصبعى وبعد مرورها بحثت عنها كمادة فلم اجدها ووجدت شيئا اخر لا يشبهها أولا اعتبره مادة اليس هذا برهانا على ان الذى اسميه مادة هو لا مادة وان المادة وغير المادة قابل كل منهما للتحول الى الاخر هذه تجربة لم نجربها بذاتها

— طبعا لم يمر شىء بين أصبعيه — ولكنا أجرى تجربة مثلها العالم ج . تمسون فقد أمر جملة الكترونات فى جسم من الهيدروجين فكانت نتيجة التجربة تحول المادة الى شعاعات اى الى لا مادة

ثم وجد اننا لكتابة القوانين الطبيعية التي تخضعها المادة مضطرون الى استعمال رموز رياضية معقدة وهذه أكبر عقبة في درس العلوم الطبيعية . سمحت حضراتكم طبعا شيئاً عن النظرية النسبية وعن الكترونات . وكلنا يتوق الى معرفة شيء من ذلك . وما فائدة العلم ان لم نتمكن به من افهام غرضه ولكن الصعوبة انه لا يمكن التعبير عنه الا بتلك الرموز

تذكرون النظرية النسبية ،

جاء أنشتين في سنة ١٩٠٥ بنظرية النسبية البسيطة : جاء برموز ومعادلات وقال انه غير راض عنها

وقال اذا سلمتم لي بانه يمكن اختلاط الزمان والمكان — وهذا ما ليس من السهل على رجل عاقل أن يسلم به — قال اذا أمكن التسليم بذلك أصبحت هذه المعادلات مرضية ولكن كيف يمكن التسليم باختلاط الزمان والمكان دون أن نفسي أو نتناسى كل ما ألفناه وتعلمناه . ولكن الواقع أن المعادلات التي كتبها انشتين هي التمثيل الحقيقي لما هو واقع في الخارج ولكن فكرة الزمان والمكان وغيرها من الافكار التي اكتسبناها وتعلمناها لم تكن مرتبطة بالحقائق

فنحن بين أمرين اما ان ما علمناه غير مرتبط بكنه الحقائق أو أننا كنا بعيدين عن الحقيقة التي ترتبط برموز لا نستطيع أن نفهمها والغريب انه تبين ان انشتين كان على حق وان الزمان والمكان فكرة مرتبطة بأشخاصنا لا تمثل لها بالحقيقة في الخارج والحقيقة مرتبطة بافكارنا نحن القائمة في انفسنا . قال جينز ان العالم أقرب الى فكرة عظيمة منه الى آلة عظيمة وهكذا تغيرت وجهة النظر في العلم الطبيعي عما كانت عليه في القرن التاسع عشر بحيث أصبح التفكير هو الاساس. أما المادة والزمان والمكان فكل هذه فروض.

بقي شيء آخر وهو القوانين الطبيعية التي كان علماء القرن التاسع عشر يعتقدون انها تنظم سير الآلة .

أما قانون الجاذبية العامة فقد انتهى بانتهاء وجود هذه الآلة واعتبارها فكرة ولكن هناك قانونا بويل وقد فهمنا سره وسر ارتباطه بسير المادة والواقع خلافا لما كان منظنونا أنه يعبر عن انعدام النظام لا عن وجوده .

ولكن هل هناك نظام وترتيب ؟ هذا مالا يمكننا الجواب عليه .

لا تزال أمامنا قوانين يظهر أنها مرتبطة بحقيقة ما هو موجود في الخارج . أفرضوا أن العالم كوبة من الماء استطيع بنظري اليها أن أميز أشياء وأسميها بأسمائها كما لاحظتي طولها وعرضها فهذه نواح من الحقيقة سميها بأسماء من عندي فوجود ارتباطات بين هذه الملاحظات ناشيء عن اني اخترت هذه الملاحظات لهذا الشيء بهذا الشكل . فالطبيعة اذن ليست سراً ولكن السر في الانسان لان الشيء الوحيد الذي تقوله الطبيعية لا تقول شيئاً الا ما يريده أن تقوله .

وهذا يمثل حكاية من حكايات جحا

كان معه عشرة حمير . ركب حماراً وعد الحمير فوجدها تسعة ونزل وعدها فوجدها عشرة وكرر ذلك مراراً

فظن انه اكتشف قانونا طبيعيا هو أن عدد الحمير اذا كان راكبا هو تسعة واذا كان سائراً فهو عشرة

هذا بالضبط ما يظنه كثيرون اليوم لأن ما نسميه قوانين طبيعية ناشيء عن شيء كهذا

اذا كان الامر كذلك فستقرب مسافة الخلف بين الفلاسفة والشعراء من جانب وبين العلماء الطبيعيين من جانب اخر فاكبر ميزة لعصرنا الحالي ان ما كان يقوله الفلاسفة والعلماء الروحيون صار يقول به علماء الطبيعة اليوم

للفيلسوف الانكليزي بيشوب باركلي نظرية مغزاها أن القمر موجود اذا نظرنا اليه وانه غير موجود اذا لم ننظر اليه أو بعبارة أخرى أن الوجود شيء قائم بالمشاهد لا بالمشهود وهكذا نجد أنفسنا موقنين الى مثل هذه النظرية فالوجود شيء أشبه بالوجود في الفكر منه بالوجود في الخارج

وضع ڤرجيسون كتابا طويلا تعداداً في نظرية النسبية لانشتين وختم بقوله بأن الساناوجد آثار اقدام في الرمال فبحث عنها وأمعن في النظر لتعرف آثار من هي وبعد البحث وجد أنها آثار قدميه هو. هذه حقيقة قديمة والمدهش أن يكتبها رياضي في آخر كتاب معقد لا يستطيع فهمه غير نفسه ان كان يستطيع ذلك

تطور الموقف اذن وأصبح العالم المادي المكتفي بمشاهداته (ودة قديمة) وكادوا ينتهون من هذه النظرية ولكنه لحسن الحظ أو لسوئه لا يزال هناك اناس يتمسكون بالنظرية القديمة . أما لحسن الحظ فلان المحافظين مثل « الفرامل » تحفظ من الاندفاع فالوقوع . وأما لسوء الحظ فلانهم يتمون عقبة في سبيل النظريات الجديدة .

ولكن المفكرين اليوم يميلون الى وجهة النظر التي نستطيع أن نسميها روحية . وقد بدأ أحد العلماء الطبيعيين كتابه بشعر في وصف البحر ومناظره ولم يكن ذلك منه غير جدلان هناك طريقتين للبحث عن الحقيقة طريقة الشاعر باستقصاء ما بنفسه من الانفعالات وطريقة العالم الذي يتكلف اموزويرا الرموز جاهلا بما تؤثره في نفسه من تأثير خاص فكلاهما يتعرض للحقيقة ويبحث عنه ولكن من وجهتين مختلفتين

لا نفهم أحد من عنوان المحاضرة اننا سنتحدث عن التنويم المغناطيسي وتحضير الارواح فاني انما أتكلم عن العلم الطبيعي وعن النزعة الروحية في تفكير هؤلاء العلماء الطبيعيين لا عن علماء الابحاث الروحية

الحقيقة الواقعة ان الذي نحسه ونشاهده ليس الا رموزا لمشاهد تناوا حساسنا فكأنه تظل الحقيقة وليس الحقيقة ذاتها .

ما هو المشاهد ؟

انه ليس بالمادي فحسب فانا أشاهد الضوء والضوء ليس بمادة ولكن لنفرض أن الضوء والمادة شيء واحد فهناك ما يشاهد وليس بمادة كالمجال فهذه الساعة مثلا اذا وضعتها في هذا الجزء من الفراغ البعيد عن الارض كان لها حكم غير حكمها في جزء آخر من الفراغ قريب من الارض لان الجزء من الفراغ البعيد عن الارض له خواص غير خواص الجزء القريب منها فوجود الارض قد أثر في خواص الفراغ وليس غريباً اذن أن تتحول المادة الى لامادة لانه قد عرف ان المادة تؤثر فيما ليس بمادة وهي خواصه

هناك الارض ومجالها الذي تتصوره والارض تتكون من أجزاء كل منها يكون له مجالا خاصا . ان الارض تتألف من جزئيات بين احداها والاخرى مسافة عظمى واذن فهي كرة كبيرة من الفراغ بينها نقط صغيرة متحركة من الجزئيات ومادام لكل جزيئة مجالها فكأن الارض تتكون من لاشيء .

وهذا كلام يبدو فيه كثير من الغرابة ولكن هذا هو تفكير العلم الحديث ولا بد من متابعته وقد دل على صحته ان هذه الاشياء الجامدة تتحول الى مثل ما حولها من فراغ . وقد قربت بذلك وجهة نظر العلماء من وجهة نظر الفلاسفة حتى كادت تنعدم وقد جرى الفلاسفة اليوم على الرغبة في أن يكون التفكير علمياً كما جرى العلماء على الميل الى التفكير الروحي فبهذا التعاون بين الفلاسفة وبين العلماء ينتظر أن نكون أقرب الى تفهم الحقيقة .

استدراك

عن مقال « ابن المقفع »

ذكرنا تحت عنوان البحث المنشور على الصفحة الرابعة عشرة عن (ابن المقفع وآثاره الادبية) انه ملخص محاضرة ألقاها الاستاذ احمد أمين بنادي موظفي الحكومة بالاسكندرية ونزيد هنا اننا لم نستطع الحصول على النص الاصلي لهذه المحاضرة ، وان الملخص المذكور هو ما دون منها خلال القائها

ابن خلدون

اقرأ تاريخ حياته وشرح نظرياته

الفلسفية والتاريخية

في كتاب

فلسفة ابن خلدون الاجتماعية

للدكتور طه حسين والاستاذ محمد عبد الله عنان

فيه ترجمة ضافية لابن خلدون وشرح علمي محدث لنظرياته في الفلسفة والاجتماع وسياسة الملك ، ومقارنات لآرائه بآراء أقطاب الاجتماع والسياسة مثل أرسطو ومكيافللي ومونتسكيو

(ثمنه خمسة عشر قرشاً عدا البريد)

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الساحة نمرة ٣٩ ومن جميع المكاتب الشهيرة

زينب

أهدوء وحناظر ريفية

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل

(الطبعة الثالثة)

وتطلب من دار السياسة بشارع المفاخ لمكتبة التجارية بشارع محمد علي وسائر المكاتب الشهيرة

جماعة نشر الثقافة

بقية المنشور على صفحة ٣

الحديثة بطريق المحاضرات فيصيب فيه الطالب بغيته والمتأدب لذته

وقد سارت الفكرة سيراً حسناً وأصبح افتتاح هذا المعهد أمراً لا يستغرق الا أياما قلائل .

أما الرسائل فقد أرسلنا أن الصحف على اختلاف ألوانها لم تأل جهداً في سبيل تشجيعنا ومناصرتنا واننا لنشكر لها هذا الفضل ولكننا لا نعرف كيف نشكر لجريدة السياسة الغراء تفضلها على قبول رجائنا بأن نخصها نخصنا بملحق فيها وهي وايم الحق منة قد طوقت بها عنقنا وفضل لها علينا نذكره لها ونخص بشكرنا صاحب العزة الدكتور محمد حسين هيكل بك ومن الطبيعي أن يسارع الدكتور هيكل بك الى مناصرتنا وهو الزعيم الادبي الكبير والمفكر الجليل الذي يتثقف على كتبه وبحوثه جمهور الناشئين وسواد القراء وان الجماعة لتستمد من روحه نشاطا لجمهورها ومن فكره قبساً تستضيء به في بحوثها .

***

وبعد فهذا ملحق لجريدة السياسة الغراء اختصته برسائل جماعة نشر الثقافة بالاسكندرية وقد أردنا أن نتنوع موضوعاته على قدر الامكان وتركنا فيه المجال فسيحا لحضرات الاعضاء .

وقد جاءتنا رسائل عديدة نجيزنا منها ما أدرج في هذا العدد وأرجأنا ما سواها الى ما بعد .

وقد احتفظنا لكل عضو بآرائه حرة طليقة . فهي اذن آراء شخصية لاصحابها لم تصدر الجماعة مجتمعة لتقرها أو لا تقرها لذلك رغبنا انه يوقع كل أديب رسالته ليحمل مسئوليتها .

ونرجو أن نكون قد وفقنا بعض الشيء في اكتساب عطف الجمهور وأن ينظر الينا بعين التشجيع حتى نتابع السير في سبيل المصلحة العامة والسلام

رئيس الجماعة

خليل شيبوب

مصر الاسلامية

وتاريخ الخطط المصرية

دراسات جديدة لتراث ومواقف شائقة في تاريخ مصر الاسلامية

بقلم

محمد عبد الله عنان المحامي

طبعة ممتازة بالمطبعة الاميرية بدار الكتب

ثمنه ١٥ قرشا عدا أجرة البريد

ويطلب من مؤلفه بادارة السياسة والمكتبة التجارية بأول شارع محمد علي ومكتبة النهضة بالمدابغ أمام جريدة الاهرام ومكتبة دير بهاء الدين قرب محطة المترو وباقي المكاتب الشهيرة

هارون الرشيد
شخصيته فى التاريخ والقصص

هارون الرشيد شخصية من أشهر شخصيات التاريخ الأسلامى ، وأكثرها تداولا على الالسنة ، وأشدها شيوعا فى الادب العام . ومع أنه شخصية تاريخية بحتة قد أسبغ عليه القصص ثوبا ضافيا من زخرفة ورونقة ، وتعاوره الوضع والانتحال من نواح عدة ، فالبس وجه الحق فيه على جمهور المتأدبين ، ولم يسلم من الوهم فى أمره غير واحد من الخاصة أنفسهم . ونريد فى هذا البحث أن نعرض لتلك الشخصية بقدر مايسع المقام كما يصورها التاريخ الصحيح أولا ، ثم كما يصورها الوضع ثانيا ، وان نبين بعد ذلك مدى الاتصال بين التصويرين .

— ١ —

هو هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور ، ينتهى نسبة من ناحية أبيه الى العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم . وأما أمه فأم ولد اسمها الخيزران . وكما كان أبوه وجده من أقوى الرجال أرادة وأشدهم شكيمة ، فقد كانت أمه جموح النفس وكانت الى ذلك موفورة الحظ من العلم ، قد أخذته عن الاوزاعى أمام أهل الشام كما يروى الطبرى . ولد هارون بالرى سنة ١٤٨ وذلك أيام كان ابوه واليا على خراسان من قبل المنصور . فلما جاوز عهد الطفولة دفع به أبوه الى يحى بن خالد البرمكى ليتولى الاشراف على تقويمه وتعليمه . فانشأه يحى على آداب ملوك الفرس من بنى ساسان فكان هارون يحب الصيد والقنص ، ويلعب بالصولجان والشطرنج ، ويشهد سباق الخيل فى مباديين السباق . واما تعليمه فلعل وصيته هو الى الاحمر النحوى ، فؤدب ولده الامين تربيا كيف علم ، وكيف كان يملى ولاذ العهود فى ذلك الزمان فهو يقول فيها « ياأحمر ! ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : قوئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الاشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام ، وامنعه الضحك الا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا اليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها ، من غير أن تخرق به ، فتميت ذهنه . ولا تمعن فى مسامحته فيميل الى الفراغ ويألفه . وخوفه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أبلها فعليك بالشدة والغلظة . »

فلما أشتد ساعده أخذ أبوه يدربه على الادارة والحرب ، فغزاه الروم مرتين فى سنتى ١٦٣ هـ و١٦٥ هـ وفى سنة ١٦٣ هـ ولاه على المغرب كله وجعل على رسائله يحى بن خالد . وفى سنة ١٦٦ هـ أخذ له البيعة بولاية العهد بعد أخيه موسى الهادى ولقبه (الرشيد) ثم هم بان يقدمه على الهادى فى الخلافة لما رأى من تخايل كفايته ومقدرته ، ولكن موته فجأة فى عام ١٦٩ عاقه عن انفاذ ما أراد

فلما ولى الهادى حاول فى عهد قصير أن يخلع هارون ويبايع لابن له صغير ، ولكن هارون ابى أن ينزل عن حقه ، وشد أزره فى ذلك مربيه وكاتبه يحى بن خالد . فعرضهما الهادى لالوان من الاضطهاد ، حتى طلب هارون نفسا بالخلع واختيارا لم ينج يحى من الهلاك ، وحق هارون من الضياع ، الا موت الهادى غيلة فى المحرم من عام ١٧٠ هـ وبذلك أصبح هارون خليفة على الدولة العباسية .

— ٢ —

كان الرشيد عندما آلت اليه الخلافة شابا فى مقتبل العمر ، موفور الثقافة ، تام الفروسية جم الحياء ، رقيق العاطفة . هذا الى ملاحة يوصف بها ، فقد كان أبيض طويلا وسيما فصيحا . فهو بذلك قابل لفعل الخير اذا وجد ما يوجهه اليه . وتفعل الشر اذا صادفه ما يصرفه الى الشر . والتوجيه لمن يكون فى مثل حاله انما يصدر عن نظام الحكم الذى تكون الدولة خاضعة له ومحكومة بموجبه . ذلك بان لانظمة الحكم تأثيراً فى أخلاق الناس حكاما كانوا أو محكومين ، وقد لحظ هذه الحقيقة كل من كتب فى السياسة والاخلاق من لدن الاغريق القدماء حتى وقتنا الحاضر . فما النظام الذى كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطبع . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الاوائل . فخلافة العباسيين تختلف عن خلافة أبى بكر وعمر كما تختلف الحكم الاستبدادى عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بان العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الالهى فى الحكم ولكى يعطوا هذه النظرية الصفة الاسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبى صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الميراث ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها . وفى هذا المعنى يقول شاعرهم :

أنى يكون وليس ذاك بكائن
لبنى البنات وراثة الاعمام

ويقول السفاح فى خطبته التى خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة « واعلموا أن هذا الامر فينا ، ليس بخارج مناحتى نسلمه الى عيسى بن مريم عليه السلام » ، ويقول المنصور من خطبة له « أيها الناس ! انما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتأييده وحارسه على ماله ، اعمل فيه بمشيئته وارادته وأعطيه باذنه ، فقد جعلنى الله عليه قفلا ، ان شاء أن يفتحنى فتحنى لاعطائكم وقسم أرزاقكم وان شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى ... » ولكى ندرك مدى التغيير الذى أصاب الخلافة على عهد العباسيين نكتفى بان نورد بعض خطبة أبى بكر التى خطبها على أثر بيعته فقد قال « أيها الناس ! قد وليت أمركم ، ولست بخيركم ، فان أحسنت فاعينونى ، وان أسأت فقومونى ... أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ... » كما نورد الشعر الذى خاطب به الخطيئة عمر بن الخطاب بعد أن يوبخ ، قال . —

أنت الامام الذى من بعد صاحبه
ألقت اليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها اذ قدموك لها
لكن لانفسهم كانت بك الاثر

وكما ورث الرشيد الحكم بموجب النظرية المذكورة ، فقد ورث بالاضافة اليها مايصح أن يعتبر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسى للدولة ، ذلك نظام البلاط ، وهو شىء أخذوه عن الفرس كذلك فقد كان الاكاسرة يعيشون محتجبين عن الرعية فى بلاطهم ، يحف بهم حاشيتهم وحجابهم وحراسهم وغلمانهم ، وحرمة نسائهم وجواريهم أن صح هذا التعبير وكثيراً ماكان بلاط فارس بهذا التخليط مبعث الدسائس والاثم السياسية كما يرى من تاريخ متأخرى الساسانيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السيء فى الشئون العامة لاول ظهوره ، فقد ذهب المهدى والهادى ضحية مكايد دبرت لهم فى نفس بلاطهم .

حكومة استبدادية تستند الى نظرية سياسية جامدة ، وبلاط هو بحكم تكوينه وجوصالح للدس والمكايدة ذلك ، هو النظام السياسى الذى أصبح الرشيد يحكم بمقتضاه وفى حدوده وهو نظام من شأنه انه اذا كان الذى يحكم فى ظله قويا كان من أقوى أسباب الاستبداد والطغيان . واذا كان ضعيفا كان من أقوى بواعث الفتنة والاضطراب

وهذا بالدقة مايثبته تاريخ الدولة العباسية فالمتقدمون من خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالمنصور والمهدى والرشيد والمتوكل كانوا جبارة طغاة . وأما المتأخرون الذين يوسمون بالضعف فقد كانوا آلاعيب فى أيدى أهل البلاط ونساء القصر ، يصرفونهم كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم

— ٣ —

على ان الرشيد لم يتقبل دفعة واحدة أثر هذا النظام ، فصغر سنه وحداثة عهده بالحكم يحولان بطبيعة الحال دون هذا التقبل السريع لذلك نجده كالمعترف بأنه لم يبلغ بعد أن يضطلع بشئون تلك الدولة العظيمة يفوض الامر كله الى يحى بن خالد الذى أصبح وزيره ، وقد بالغ من تحفيه به رأعظامه له انه كان لابنائه الا « بيا أبت ! »

ويحى هذا هو يحى بن خالد بن برمك . وكان برمك فى مبدأ أمره سادن معبد بوذى قديم بمدينة بلخ يقال له (النوبهار) ثم اعتنق الاسلام فى أواسط الدولة الاموية واتصل بعبد الملك بن مروان وابنه هشام ، ويقال انه شفى هشاما من مرض كان به . وقد اشترك ابنه خالد فى أمر الدعوة العباسية وأبلى فيها ثم استوزره المنصور لاصالة رأيه وكفايته وان كان ذا ميزل أعجمية لم تخف على المنصور وقد ورث ابنه يحى فضائله وكان لذلك أثيراً لدى المهدى . فلما تولى الرشيد أطلق يده فى شؤون الدولة فاستعان يحى فى ادارتها بأولاده الاربعة ، الفضل وجعفر وموسى ومحمد وكانوا كاف قدير ، وقسم أمور الدولة بينهم وصار يعول عليهم فى معالجة الحوادث الخطيرة . فالفضل هو الذى استصلح يحى بن عبد الله العلوى الذى ثار بطبرستان ، والى موسى وجعفر يرجع الفضل فى القضاء على فتنة الغرب بالشام .

والخلاصة أن البرامكة غلبوا على كل شىء فى الدولة وأداروها ادارة حسنة ، ولكنهم الى جانب ذلك قد شلوا سلطان الرشيد حتى كادت شخصيته تمحى فيهم .

وبعلو البرامكة وهم أسرة أعجمية كما تقدم القول ، علا شأن العنصر الفارسى عامة ، وتحقق ما كانت موالى الفرس ترمى اليه من اسقاط الدولة الاموية العربية ، واقامة الدولة العباسية التى كانوا عدتها ومحل عصبيتها .

وقد أدرك العرب بوادر هذا الانقلاب منذ قامت الدولة العباسية فكانوا يعبرون عن معارضتهم لها وسخطهم عليها بالثورة حيث يكثر عددهم وخاصة بالجزيرة والشام ومصر . فكان الخلفاء العباسيون الاوائل يلقون ثورانهم بالعنف وتفريق الكلمة حيث استطاعوا لعلمهم ان العرب أنصار الدولة الاموية التى قضوا عليها . لذلك نجد قادة العرب هذه المرة يعولون على الدهاء واصطناع الحذر

كان بنو هاشم على رأس الحزب العربى ببغداد ، ولكن كان يمثل هذا الحزب ببلاط الخليفة شخصان الفضل ابن الربيع والسيدة زبيدة .

أما الفضل فكان رجلا واسع المطامع ، جم الدهاء ، قادراً على الدس والوقيعة ، حاقداً على البرامكة ، ومن يقرأ مدائح أبى نواس فيه يرى انه كان يستعين بالشعراء على لفت نظر الرشيد اليه .

من ذلك قول أبى نواس مخاطبا الرشيد :

قولا لهارون امام الهدى
عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على ما بك من قدرة
فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم فى واحد

وكان من وراء ذلك ان استحجبه الرشيد فى عام ١٧٩ فكان محمد بن يحى البرمكى

وأما الزعيم العربى الثانى اذا صح هذا الوصف فلم يكن غير السيدة زبيدة حفيدة أبى جعفر المنصور وزوج الرشيد وأم ولده محمد الامين .

وهى امرأة عظيمة المواهب موفورة الثقافة شديدة المباهاة بنسبها الهاشمى وكان الرشيد يجلها ويعرف لها مكانتها الممتازة . وكانت هى ايضا مباعدة للبرامكة متغيرة على يحى وكان اليه أمر القصر فكان بذلك يضيق عليها ويتعمد عدم انفاذ أوامرها حتى انها شكته الى الرشيد فلم يزد الرشيد على ان عتب على يحى فى ذلك .

وهما يكن من شىء فقد تركزت المنافسة بين العرب والعجم اذ ذاك فى أمر ولاية العهد فاما العرب فكانوا يحرصون أشد الحرص على أن يعقد الرشيد البيعة بولاية العهد لمحمد الامين العربى الابوين . فى حين ان الفرس كانوا يحرصون على أن يكون الذى يلى الرشيد فى الخلافة هو عبيد الله المأمون الفارسى الام .

وقد حار الرشيد فى الامر حيرة شديدة. وأخيراً غلب عليه النفوذ العربى فعقد البيعة بولاية العهد لمحمد فى سنة ١٧٥ ولقبه (الامين) فكان ذلك سبباً فى أن جد الفرس فى الامر حتى اضطر الى أن يبايع بولاية العهد لابنه عبد الله فى سنة ١٨٣ على أن يلى بعد الامين ولقبه (المأمون). ثم أوحى الى الشعراء والى عمه عبد الملك بن صالح ان يطلبوا اليه البيعة بولاية العهد لابنه القاسم ففعلوا فعقدها له فى سنة ١٨٦ على أن يلى بعد الامين والمأمون ولقبه (المؤتمن). قالوا ولم يمنعه من البيعة لابنه المعتصم الا كونه أمياً وغير متعلم مثل اخوته المذكورين

ثم بدا له فتفوق المأمون على الامين فهم بأن يقدمه عليه فى ولاية العهد، ولكنه لم يفعل وكل الذى صنع أن قسم الدولة بين أبنائه الثلاثة المذكورين؛ فجعل للمأمون الاقاليم الشرقية التى يغلب عليها العنصر الفارسى وللامين الاقاليم الغربية التى يغلب عليها العنصر العربى. وجعل الجزيرة والثغور لابنه المؤتمن

ثم لحظ الخطر الذى يتهدد الاقاليم الشرقية فأوصى للمأمون بمال وسلاح كثير تقوية له وجعل اليه أمر المؤتمن اذا آلت اليه الخلافة؛ ان شاء أمضى عقد بيعته وان شاء نقضه وجعل الخلافة بعده لمن شاء. ولكى يؤكد هذا النظام حج فى سنة ١٨٦ واستصحب ابنيه الامين والمأمون. فلما كان بمكة كتب عهوداً ثلاثة أخذ فيها الميثاق على ابنيه أن يرعى كل منهما حق أخيه عليه كما اخذ العهد على رجال الدولة أن يكونوا على من يدل وغير فى عهده. ثم أمر فعلقت هذه العهود الثلاثة فى جوف الكعبة توكيداً لها وقطعاً لشأنها

لاشك فى أن ذلك النظام الذى وضعه الرشيد للخلافة من بعده لايشرف الرشيد كثيراً. فهو نهاية خطل الرأى وفساد التدبير وان الفتن التى وقعت بين الامين والمأمون؛ والتى صدعت وحدة الدولة العباسية حينا من الزمن؛ لتقع تبعتها على عاتق الرشيد نفسه؛ لقد حرص الرشيد فى وضع النظام المذكور على ارضاء الاهواء المختلفة بدلاً من أن يصطنع الحزم ويتوخى مصلحة الجماعة. وقد لحظ ذلك معاصرو الرشيد نفسه. قال شاعر من شعراء ذلك العصر:

رأى الملك المهذب شر رأى
يقسمه الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم
لشيب من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع من بنيه
خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل
وأورث قتل اقتهم بدادا
فويل الرعية عن قليل
لقد أهدى لها الكرب الشدادا
ستجرى من دمائهم بحور
زواخر لايرون لها نفادا
فوزر بنيهم أبداً عليه
أغيا كان ذلك أم رشادا

— ٤ —

وعلى أثر انصراف الرشيد من حجه المذكور راع العالم الاسلامى بحادث لايزال على الرغم من كثرة ما كتب وقيل فيه مبهما غير واضح؛ ذلك ايقاعه بالبرامكة فى عام ١٨٧ لقد تعددت الروايات الواردة فى تعليل هذا الحادث المحزن، ولكنها كلها لاتشفى غلة الباحث. فالرشيد لم يصرح لفرط دهائه بسبب نكبته البرامكة، وترك الامر ينحدر الى الاجيال من بعده لغزاً غامضاً. ومن جهة اخرى فان البرامكة لم يرتكبوا جرماً واضحاً ثابتاً عليهم يمكن أن يعتبر السبب المباشر فى نكبتهم. قالوا ان السبب فى الفتك بالبرامكة استئثارهم بالاموال واحتيازهم الضياع العامرة، وهو سبب غير وجيه لان من يقدر على انتزاع المهج والارواح هو اقدر من باب اولى على انتزاع الاموال. وقالوا انه الزندقة وعدم التصحح للاسلام؛ وهو أمر لو صح لأعلنه الرشيد اقامة للحجة على البرامكة واستثارة للرأى العام الاسلامى عليهم. وقالوا انه تشيعهم للعلويين وسعيهم فى نقل الدولة اليهم واطاتهم يحيى بن عبد الله العلوى على الثورة بالرشيد. وهو سبب غير وجيه لان البرامكة انما عزوا بالدولة العباسية وبلغوا ذروة المجد فى ظلها فماذا يحملهم على التضحية بذلك والمخاطرة فى أمر قد يتحقق وقد لايتحقق! ثم هو على فرض تحققه لن ينيلهم شيئاً غير حاصل فى ايديهم بالفعل. وقالوا انه زواج جعفر بن يحيى من العباسة اخت الرشيد واتصاله بها مراً برغم حظر الرشيد ذلك عليها. وهذا السبب عندنا خرافة موضوعة زيفها ابن خلدون فى مقدمته؛ وسنعرض لها فى موضع آخر من هذا البحث.

أن الذى نرجحه، ولاسبيل فى هذا الموضوع سوى الترجيح؛ ونرى أنه السبب الجوهرى فى ايقاع الرشيد بالبرامكة انما هو استئثارهم بالسلطان حتى كادوا يخلعون الرشيد. وقد قدمنا أن حكومة الرشيد حكومة استبدادية مدعومة بفكرة دينية اجتلبها العباسيون اجتلاباً ليمكنوا لانفسهم. والمستبد لايطيق أن يشاركه انسان فى السلطان الذى يراه حقه المشروع. ولاسيما اذا كان فى مثل دهاء الرشيد وشدة اعتداده بنفسه ولم يصبر الرشيد فى مبدأ الامر على نفوذ البرامكة الا لصغر سنه وقلة تجاربه. فلما صلب عوده واتسعت خبرته وشعر بحقه لم يعد للصبر عنده موضع ولا مساغ.

وقد وجد خصوم البرامكة من العرب وعلى رأسهم الفضل بن الربيع وكاتب البرامكة اسماعيل بن صبيح مجال السعاية واسعاً، فاقبلوا يخبون فيه ويوضعون فاوهموا الرشيد بما يصح ان نعتبره السبب المباشر فى ايقاعه بهم، اوهموه ان البرامكة على اتصال بخراسان التى انبعثت منها الثورة بالامويين؛ وان الجيش الضخم الذى حشده الفضل بن يحيى هناك لتأمين الحدود الشرقية فى الظاهر انما هو فى الواقع لامراجل وغرض اعظم؛ وان موسى بن يحيى على اتصال بخراسان وانه يكاتب اهلها ليسيروا اليهم ويخرجوا عن طاعة الخليفة. وصارت الكتب ترد على الرشيد غفلا من توقيع اصحابها كالسهام يرمى بها فى الظلام، وكلما تحذر الرشيد من البرامكة وتريبه أتهم على وشك ان يدفعوا به فى هاوية بعيدة القرار.

كل ذلك أثار هواجس الرشيد، وجعله يعتقد ان الامر بينه وبين البرامكة هو عين الجد؛ وأنه أمر حياة أو موت. واذ بلغت الحال ذلك المدى فاويل كل الويل لاولئك الذين جزوه اساءة باحسان وغدروا بوفاء. لقد نبهوا منه من لاينام ولاينيم

لاشىء أدل على أن الرشيد قد استكمل الدهاء والحزم والتصميم وأن نظام الحكم الذى وصفناه قد عمل فيه عمله فصاغ منه جباراً عنيداً من سعيه فى استرداد سلطته والتنكيل بالبرامكة. فقد سار فى الامر بحذر شديد فاتصل بالجمهور مباشرة وجعل يعنى بما يعجبه، من اصلاح للنظام المالى استمان فيه بقاضيه ابى يوسف، وتوفر على الغزو والحج فى المواكب الفاخرة زاكياً وماشياً؛ واصطناع للطبقة المفكرة من فقهاء وعلماء وشعراء، وأغداق للاموال على الناس وبخاصة فى حجته التى حجها عام ١٨٦؛ وبالاخذ الشديد لنفسه مقتدياً فى ذلك بجده المنصور. وقد تم له ما أراد فعلت مكانته فى النفوس، واشتدت هيبة الناس له. عند ذلك تنكر للبرامكة ولكن فى حيطة واحتراس فلما عاد من الحج وكان بمكان يقال له (العمر) قريب من الانبار نفذ أوامره فى ليلة واحدة بقتل جعفر بن يحيى واعتقال سائر البرامكة واستصفاء أموالهم. ثم انه أمر بتقطيع جثة جعفر ونصبها على جسور بغداد الثلاث؛ وبيسط العذاب على يحيى والفضل حتى ماتا فى السجن ونهى الشعراء عن أن يرثوا البرامكة أو يذكروهم فى شعرهم وتوعد من يفعل منهم ذلك. وتقول المصادر الفارسية ان الرشيد قتل من البرامكة نحو ١٢٠٠ نفس، ولكن المصادر العربية وهى الاوثق لايؤخذ منها ذلك والحق أن البرامكة انما نكبوا فى سلطانهم وأموالهم بدليل أن ذريتهم بقيت بعد هذه الكارثة أجيالا طوالا

وقد ظلت جثة جعفر منصوبة على جسور بغداد حتى مر بها الرشيد وهو متوجه الى خراسان عام ١٩٢ فأمر بانزالها واحراقها، يقول صاحب الفخرى فى كتابه رواية عن بعض معاصرى الرشيد «دخلت الديوان فنظرت فى بعض تذاكر الدواب، فرأيت فيها أربعمائة الف دينار(١) ثمن خلعة جعفر بن يحيى الوزير؛ ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نفط وبوارى لاحراق جثة جعفر بن يحيى، فعجبت من ذلك»

اقدم شفى الرشيد نفسه بنكبته البرامكة، ولكنه اشترى ذلك بالثمن الغالى، فان الاضطراب الذى أصاب دولاب الادارة العامة؛ وعدم كفاية آل الربيع الذين خلفوا البرامكة؛ كل ذلك اضطر الرشيد الى دوام الحركة غرباً وشرقاً لاخماد الثورات التى كان يمهد من قبل باطفاء ثائرتها الى البرامكة وقد أدرك الرشيد خطأه، ولكن بعد أن سبق السيف العذل فاشتد به الندم وتوبيخ الضمير واخذت صحته تضمحل وسلط عليه الارق فاذا نام فنوم مروع بالاحلام المفزعة. وغدا محتاجاً الى من يسامره فى جوف الليل لينفى عنه الوحشة كما أصبح محتاجاً الى من يدخل السرور على قلبه الوجل فاتخذ مضحكاً اسمه ابن ابى مريم المدينى؛ وصار يرتاح الى الوعظ والتزهيد فى الدنيا فاذا وعظه ابن السماك او أنشده ابو العتاهية خشع قلبه وفاضت دموعه. على أن شر ما ابتلى به الرشيد بعد ذهاب البرامكة فتور العلاقة بينه وبين رعيته، فقد أصبح مخوفاً مرهوباً بعد ان كان مهيباً محبوباً. وصاروا يشبهونه بالدهر فى تقلبه وتخونه. قال ابو نواس وقد مر بعد ذهاب البرامكة بدور آل الربيع:—

ما رعى الدهر آل برمك لما
أن رمى ملكهم بأمر فظيع
ان دهراً لم يرع عهداً ليحيى
ثم راع ذمام آل الربيع

حتى أبناؤه؛ فانهم أصبحوا يستطيلون حياته ويتمنون زوالها. قالوا أنه لما سار سنة ١٩٢ الى خرسان لحرب رافع بن الليث الصفار (سايره الصباح الطبرى فقال له يا صباح ما أظنك ترانى أبداً. فدعا له. فقال ما أظنك تدرى ما أجد، قال الصباح لا والله. فعدل عن الطريق، واستظل بشجرة وأمر خواصه بالبعد، فكشف عن بطنه فاذا عليه عصابة حرير، فقال هذه علة أكتمها الناس كلهم، ولكل واحد من ولدى على رقيب، فمرور رقيب المأمون؛ وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الامين، وما منهم أحد الا وهو يحصى أنفاسى ويستطيل دهرى وان أردت أن تعلم ذلك فالساعة ادعو بدابة فيأتونى يبرذون أشجف قطوف ليزيدنى. فاكتم على ذلك. فدعا له بالبقاء. ثم طلب الرشيد دابة فجاءوا بها على ماوصف؛ فنظر الى الصباح وركبا.)

ولم تطل حياة الرشيد فقد اشتدت به علته فى خرجته هذه وساء خلقه حتى انه لما جىء بأخى رافع بن الليث الثائر قتله شر قتلة وهم بان يفعل مثل ذلك بطبيبه جبرائيل بن بختيشوع لانه أخطأ فى علاجه لولا ان الموت عاجله بمدينة طوس وقد دفن بها وكان ذلك فى جمادى الآخرة من عام ١٩٣ هـ

— ٥ —

اذا كان الرشيد لم يوفق بوجه عام فى مجال السياسة الداخلية فانه كان على عكس ذلك فى ميدان السياسة الخارجية؛ فقد أظهر فيها نشاطاً ومرونة وكياسة تشهد له بالبراعة الدبلوماسية كما يؤخذ من المصادر العربية التى تعرضت لعلاقته بالدولة البيزنطية؛ ومن المصادر الاوربية التى تعرضت لعلاقته بشرلمان ملك الدولة الفرنجية. لقد كان فى العالم الاسلامى والعالم المسيحى اذ ذاك اربع دول كبيرة: اثنتان اسلاميتان متعاديتان هما الدولة العباسية والدولة الاموية بالاندلس. واثنتان مسيحيتان متعاديتان كذلك هما الدولة البيزنطية والدولة الفرنجية وكانت الحرب متصلة بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية من أجل ذلك نجد الرشيد يحصن الثغور الشامية والجزرية ويتولى بنفسه غزو الروم ويفرض الجزية على ملكتهم أيرينى وملكهم نقفور الذى جاء بعدها. وكذلك كانت العلاقة مقطوعة فى الغرب بين شرلمان وأمويى الاندلس. وقد أسفرت هذه الحال عن تقارب بين بيزنطة والاندلس، وتقارب مثله بين الدولة العباسية والدولة الفرنجية. ولكن لم يتم اتفاق بين بيزنطة والاندلس؛ فى حين أن الرشيد وشرلمان تبادلا السفارة والهدية وأبرم بينهما اتفاق لا ندرى

مضمونه بالدقة . ولكن يظهر من قرائن الاحوال أن الرشيد تعهد بحماية حجاج أوربا الغربية من عدوان البيزنطيين عليهم ببيت المقدس وكانوا يحالفون فى مذهبهم الدينى أهل أوربا الغربية ، كما تعهد شرلمان الا يعين بيزنطة على الرشيد ، وان يغير على الأندلس فما غلب عليه . فانها تولى حكمه باسم الرشيد . قالوا ومن اجل ذلك بعث اليه الرشيد بخلعة رسمية وعلم عباسى

وقد انتفع الرشيد وشرلمان كلاهما بهذا الاتفاق ، فاوغل الرشيد فى أرض الروم ، كما اوغل شرلمان فى شمال الأندلس وشرقها مع أفراده العمال المسلمين على ما غلب عليه . ويذهب المؤرخ الانجليزى بكل الى أن الرشيد أصبح بتغلبه على نقفور البيزنطى بالحرب ، وبتغلبه على شرلمان بالسياسة وقد حاز من سعة الملك مايفوق ملك الاسكندر المقدونى .

— ٦ —

ومع ذلك لم تكن السياسة بمعناها المزدوج المجال الذى ظهرت فيه براعة الرشيد ومقدرته الانشائية . انما سطعت النواحى النيرة من نفس الرشيد فى مجال العلم والفن ، وهو فى ذلك يشارك غير واحد من عظماء المستبدين المستنيرين أمثال الاسكندر وفردريك الاكبر ، ونابليون ولويس الرابع عشر وكبار سلاطين آل عثمان . وكان الرشيد نفسه من أوحد رجال عصره علما وفقها وأدبا . وكان لابنى فى تحصيل العلم حتى بعد أن استخلف . يقول السيوطى ان المأمون أخذ الحديث عن أبيه ، ويقول رواية عن القاضى الفاضل ، ما أعلم ان الملك رحلة قط فى طلب العلم الا للرشيد ، فانه رحل بولديه الامين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله . قال وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد فى خزانة المصريين ، قال ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب الى الاسكندرية فسمعه على بن طاهر بن حوف ولا أعلم ثالثا لهما » وللرشيد شعر رقيق وصل الينا بعضه . فمن ذلك قوله يرثى جارية له اسمها هيلانة :—

فارقت عيشى حين فارقتها
فما أبالى كيفما كانا
كانت هى الدنيا فلما ثوت
فى قبرها فارقت ددنيا
قد كثر الناس ولكننى
لست أرى بعدك انسانا

على ان فخر الرشيد فى هذا المجال ليس بآثاره الشخصية ، ولكن باقباله على العلماء والفقهاء والشعراء والموسيقيين واجتذابه اياهم الى العاصمة بما كان يرفدهم به من العطايا الجسام ليكونوا هالة هو بدرها ، وعقداً هو واسطته وقد حفلت بغداد فى عهده باقطاب العلم والادب والفن حتى كان الرشيد لايعدم على بابه واحداً أو جملة منهم ليلا ونهاراً . من هؤلاء الاصمعى وأبو عبيدة الروايتان اللغويان ، والكسائى النحوى ، والواقدى المؤرخ ، وأبو يوسف الفقيه صاحب كتاب الخراج ، ومروان بن أبى حفصه ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية وأبو نواس والعباس بن الاحنف وكلهم من فحول الشعراء ، وقد نافست النساء الرجال فى ذلك الميدان فكثر الجوارى الاديبات وكان للسيدة زبيدة مائة جارية كلهن يحفظن القرآن

وكان الرشيد يعقد لكل طبقة من هؤلاء مجلسا خاصاً فللعلماء مجلس يتبسط معهم فيه ولا يأنف أن يتعلم فيه منهم ، وللشعراء مجلس يسمع فيه أشعارهم وينقدها ويجيزهم عليها بالجوائز السنية . وللمغنين مجلس يسمع فيه الرشيد غناءهم من وراء حجاب فاذا مر بما يسمع وطرب أمر فرفعت الستارة المضروبة بينه وبينهم واستأنس به أهل المجلس . ومن كبار مغنى ذلك العصر ابراهيم واسحق الموصليان وابن جامع .

وكان للبرامكة ولآل الربيع مجالس من هذا القبيل . قال المسعودى « كان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الاسلام وغيرهم من أهل النحل . فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام فى الكون والظهور ، والقدم والحدوث ، والاثبات والنفى ، والحركة والسكون ، والمماسة والمباينة ، والوجود والعدم ، والجر والطفرة والاجسام والاعراض ، والتعديل والتحوير ، والكمية والكيفية ، والمصاف والامامة أنص هى أم اختيار ، وسائر ما يورد من الكلام فى الاصول والفروع ، فقولوا الآن فى العشق على غير منازعة ، وليورد كل واحد منكم ماسنح له فيه وخطر بباله . فقال . . »

كان لهذه المجالس العلمية أثر بعيد فى تكوين اللغة العربية وتهذيبها وبعث النهضة العلمية الاسلامية . وقد اقتدى المأمون بالرشيد فى عقدها . ثم سرت عادة عقدها الى الاندلس فكانت من دواعى رقة الادب الاندلسى وعذوبته .

— ٧ —

تلك شخصية الرشيد كما يعرفها التاريخ ، أو كما تصورها لنا الصفحات الكثيرة التى أفردها لتاريخه وأخباره كبار المؤرخين وأصحاب التراجم كالطبرى والمسعودى وابى الفرج الاصفهانى . فهى فى جملتها شخصية حاكم مستبد مستنير ، فيه ضعف الاستبداد وقوة الاستنارة فهو حريص على الابهة والعظمة ، قليل الاتزان فى تصرفاته ان رضى بلغ غاية الرضا وان سخط كان طائش السيف مفرط العقوبة قاسيا فيها ، لايعرف العفو عند المقدرة ، حقود ، غير قادر على الحب الصحيح والولاء الصادق ، ولكنه مع ذلك سياسى ماهر قد ترك دولته وهى أقوى وأغنى دول الارض ثم هو فوق ذلك كله من أكثر ملوك الارض حبا للعلم والفن والادب وأشدهم تشجيعا للعلماء والادباء والفنانين

ذلك هو الرشيد التاريخى ، أما الرشيد القصصى فشىء آخر . هناك طائفة من الملح والنوادر والقصص مشهورة فى بعض كتب التاريخ والادب للاسف ، وفى كتاب « أعلام الناس » للاتليدى وفى كتاب (الف ليلة وليلة) وهى فى جملتها تصور لنا الرشيد رجلا صاحب دسلة وتهاون ، ضعيف النخوة والغيرة على عرضه ، يشتهى محارمه ويقيه قاضيه ابو يوسف بما ينيله بنيته ، قد اصطنع ابا نواس وصبر على عبثه ومجونه واذن له فى أن يدخل على حرمه ، وشغف بجعفر البرمكى حتى أصبح لايطيق فراقه وحتى كان يجلس معه فى قباء يضمها معا ، وحتى عقد له على أخته العباسة التى كان لايطيق فراقها هى أيضاً بعد أن حظر عليها أن يتماسا ! الحق ان هذه الاخبار كلها مفتعلة موضوعة وانها أثر من آثار الشعوبية التى حاولت الحط من قدر الخليفة الذى أوقع بالبرامكة ومن أقدار رجاله النابهين ، والافما بال ديوان أبى نواس نفسه ومابال كتاب الاغانى ، لايكادان يشتملان على خبر واحد يفيد انقطاع أبى نواس الى الرشيد وجراءته عليه بمثل ماترويه الملح والنوادر الآنفة الذكر ؟ يقول ابن منظور صاحب لسان العرب فى كتابه « أخبار أبى نواس » وقال بعض المترجمين ممن يحيط علما بأحوال أبى نواس : ان هذه الحكايات عن أبى نواس والرشيد موضوعات ، وان أبا نواس مادخل على الرشيد قط ولا رآه ، وانما دخل على محمد الامين » ولا شك ان فى هذه الرواية مبالغة كما يرى من يتصفح شعر أبى نواس . فقد مدح أبو نواس الرشيد واعتذر اليه ورثاه .

وهناك حكايات أخرى واردة فى (الف ليلة وليلة) تصورلنا الرشيد فى صورة ثالثة . تصوره بارعيته رحيما محبا للفنون والآداب ، يستدعى الرواة والشعراء فيقصون عليه طرائف الاخبار وينشدونه روائع الاشعار فيجيزهم بالجوائز السنية ، كما تصوره حاكما عادلا قويا مبسوط السلطان على الانس والجن ساهرا على مصلحة رعيته يتخفى هو وجعفر البرمكى ومسرور السياف فى زى تجار غرباء وينزلون الى شوارع بغداد وأحيائها يتعرفون أحوال الناس وعمال الحكومة ، فيطلعون على أمور عجيبة وشئون غريبة ، فاذا كان الغد واستوى الخليفة فى مجلسه أرسل فى طلب من يكون قد أثار فى الليلة الماضية عجبه أو غضبه ، فيعاقب المفسد ويثيب المحسن ، ويزوج المتعاشقين ، ويصلح بين المتخاصمين .

هذه الحكايات كتب أغلبها فى بغداد ومصر فى العصور الاسلامية المتأخرة عن عصر الرشيد أى ابان اضطراب الدولة الاسلامية وانحطاطها . فكان هم القصاص أن يشيدوا بالعصر الاسلامى الذهبى عصر الدولة العباسية الاولى . فصوروه عصر حكومة أبوية قوية عادلة ، وعصر حرية شخصية يجد فيه كل من الصالح والطالح حاجته وأربته . وقد اختاروا الرشيد دعامة لقصصهم دون غيره من الخلفاء لان الرشيد قد أصبح بمحاسنه ومساوئه أشهر الخلفاء على الاطلاق . فشخصية الرشيد هنا شخصية عصر أكثر مما هى شخصية رجل

ومما تسترسح اليه نفس المؤرخ فى هذا المقام أن شخصية الرشيد الذى تصوره الحكايات المذكورة ، لاتتعارض فى جوهرها مع الناحية الطيبة من حياة الرشيد التاريخى ، ناحية الجود والكرم وحب العلم والفن . هنا فقط تلتقى شخصية الرشيد التاريخية بشخصيته القصصية فتخلع الثانية على الاول مقداراً غير قليل مما كتب لها من الرواء والجمال ، والخلود

عبد الحميد العبادى

لجنة مؤتمر الطلبة الشرقيين

تعد عـــدداً ممتازاً

عن السياسة

يشترك فى تحريره كبار كتاب مصر وشعراؤها

احمد شوقى بك — الدكتور طه حسين — الدكتور هيكل — والاساتذة : ابرهيم عبد القادر المازنى — محمد عبد الله عنان — عباس العقاد — على عبد الرازق — خليل مطران بك — الدكتور شهبندر — فريد بك وجدى — انطون بك الجميل — سلامه موسى — فكرى اباظة — احمد الصاوى محمد — حافظ محمود — كريم ثابت .

ومن أساتذة الجامعة : الدكتور منصور فهمى — مصطفى عبد الرازق — احمد أمين — الدكتور عبد الوهاب عزام — الدكتور عبد الرازق السنهورى

ويحرر فيه أيضا
بعض كتاب البلاد العربية وشعراؤها
وتقرأ فيه
فصولا شرقية ممتعة يكتبها مفكرون حذقوها
وتقرأ فيه
فصولا مسهبة ، وبحوثا مستفيضة عن
مؤتمر الطلبـــة الشرقيين
فكرته ، غايته ، وسائله ، متى يجتمع ، كيف يعمل ، مدى أثره
فالعدد كنز أدبى ثمين نادر
أستلتقفه البلاد العربية والشرقية فى لهفة
وستقرؤه ، وستقرؤه ثم ستحتفظ به . . . !

فانتظروا

مساء الجمعة ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٢ !

الفرد والجماعة

مناظرة قيمة

بين شاعر واجتماعي

١ — هل المرء الا قطعة من بلاده
تحرك فى أرجائها وتجول
٢ — من النبت نبت الارض والماء مائها
جسوم ومن تلك الجسوم عقول
٣ — وعقل الفتى من زاده وشرابه
وما أورثاه والد وخليل
٤ — هى النفس بنت الارض وهى كأمها
يحركها مايتقى ويهول
٥ — كما يفصل الزلزال أرضاً منيعة
فيجرى خضم بينها ويصول
٦ — فواحسرتا للنفس نرجو صلاحها
وليس الى وجه الصلاح سبيل

عبد اللطيف النشار

***

أيها الشاعر !

هل أفهم من أبياتك الميل الى — القدرية — ان لم أقل الايمان بها ايمانا مطلقا ؟ فالفرد فى نظرك تشكله بيئته جسما ويكيفه وسطه عقلا ويظل هكذا أثراً من آثار البيئة والوسط الى أن يتوارى عنها حيث تتلقفه أحضان الابدية.

فاذا كنت من أنصار — القدرية — بالنسبة للفرد . فقد اوافقك . وقد اخالفك ولكنى لا أناقشك . لان مهمتنا تحديد العلاقة بين الفرد والجماعة .

استوقف نظرى البيت الاخير . الذى يحمل فى طياته الالم المرير . فقد قطعت كل أمل فى امكان اصلاح الفساد . ومعالجة النقص . وانى أعترض على هذه الروح التى أبديت . وهذه النزعة التى بها ظهرت . لانها مع مخالفتها للواقع . لا تصلح أن تكون نتيجة لما تقدمها من أبيات : وقبل أن أثبت لك ذلك أوجه اليك بضعة أسئلة لعلك تجد فى الاجابة عليها مجالا اما للعدول عن رأيك السكامن فى بيتك الاخير . واما للتمسك به بتوكيده وتأييده :

ما رأيك فى — القدرية — بالنسبة للجماعة ؟

ما رأيك فى أثر الجماعة فى الفرد ؟

ما رأيك فى أثر الفرد فى الجماعة ؟

أريد أن أقف على رأيك فى هذه — المسائل الكبرى بصفتك شاعراً . قبل أن أدلى اليك برأى الاجتماعيين فى امكان اصلاح الفرد والجماعة .

مصطفى فهمى

***

١ — هى النفس بنت الارض وهى كأمها
يغيرها مايتقى ويهول
٢ — كما يفصل الزلزال أرضا منيعة
فيجرى خضم بينها ويصول
٣ — أرى كل أرض قام فيها نوابغ
فتأثيرها فى النابغين يزول
٤ — أرى كل قوم قام فيهم نوابغ
فتأثيرهم فى النابغين قليل
٥ — اذا بلغت نفس العظيم جنونها
يصول بسيف مصلت ويجول
٦ — بسيف من الآراء أو حد صارم
له كل يوم فى الحياة قتيل
٧ — وليست حياة ما اريقت دماؤها
ولكن غباء فادح وخمول
٨ — وشر دم مالم يثر فى عروقه
فذلك فى جسم الوجود فضول

عبد اللطيف النشار

***

أيها الشاعر !

جميل أن تصر على توجيه النظر الى فكرة لك تعمدت من جانبى تأجيل التعليق عليها . وانى أراك الان تعلق عليها كبير أهمية بتكرار البيتين الاولين . قلت ترى ان الفرد الذى تخضع لقوانين البيئة والوراثة خضوعا لامأل فى التخلص منها . قد تعرض له ظروف فذة تجعله يخرج على هذه القوانين . ويسلك سبيلا معينا يختاره بنفسه . وهذه الظروف تتمثل فى الانقلابات الخطيرة والتقلبات العنيفة . ثم تشفع ذلك باستثناء جديد تقصره على العظماء من الافراد . فترتفع بهم فوق الزمان والمكان . وتحوطهم بسياج من المناعة يقيهم التأثر بما حولهم والرضوخ لمحيطهم .

ودعنى أستخلص من أبياتك :—

١ — انه مع ايمانك بالقدرية بالنسبة للفرد فانك ترفعها عن الجماعة فى الازمات والثورات حيث يكون لها قسط من حرية التصرف . أى انك تؤمن بالقدرية بالنسبة للجماعة ولكن تحتفظ بتحفظات خاصة

٢ — انه مع ايمانك بالقدرية بالنسبة للفرد الا أنك تعفى منها العظماء فقط

٣ — انك تعتقد ان أثر الفرد فى الجماعة قاصر على الزعماء .

وعلى ذلك أرك قد اجبت على ما وجهت اليك من اسئلة . وان كنت أمسكت عن ابداء رأيك عن اثر الجماعة فى الفرد .

وعلى ضوء أجوبتك أتقدم بمناقشة حكمك القاضى باستحالة الاصلاح الاجتماعى . وانى مشفق على حكمك هذا . لان الحيثيات التى طالبتك بها تأييداً له لم تسنده بقدر ما أساءت اليه

ان الاجتماعيين يسلمون معك بالقدرية بالنسبة للجماعة . ولكنهم لا يقرون النتيجة التى ترتبها على ذلك وهى استحالة الاصلاح بحجة اننا لا نملك من أمرنا شيئاً . وأنت اذ تقول ذلك تذكرنى بالحجة التى وجهت الى علماء الاجتماع حين قالوا بجبرية الظواهر الاجتماعية . اذ قيل لهم انكم تدعون الى (قدرية روحية) تعطل تقدم المدنية . لانه اذا ألقى فى روع الانسان انه ومجتمعه آلة فى يد قوانين لا يدله فيها ركن الى التواكل والاستسلام . فضاع الامل فى التقدم والارتقاء . ويبدو هذا الاعتراض وجيها ومنطقياً . ويجيب الاجتماعيون بانه اذا كانت العلوم الطبيعية قامت على أساس القوانين الجبرية . واذا كان اكتشاف الانسان للقوانين الطبيعية لم يقف فى عضده ويستسلم للطبيعة تتحكم فيه . بل ساعده على مقاومتها واستغلال قوانينها لمصلحته دون أن يفكر فى تعديلها أو يحاول تغييرها . فلماذا لا يكون الامر كذلك بالنسبة للمسائل الاجتماعية ؟ ولماذا لا يكون وقوفنا على القوانين التى تخضع لها الفرد بصفته عضواً فى الجماعة . والتى تخضع لها الجماعة باعتبارها جزءا من المجتمع . والتى يخضع لها المجتمع باعتباره جزءا من العالم . لماذا لا يكون ذلك سبيل لا الى تعديل هذه القوانين أو الخروج عليها أو الاستسلام لها . وانما معينا لنا لتكييف أعمالنا وتصرفاتنا وآمالنا طبقاً للقوانين الاجتماعية التى نوفق الى كشفها . فتضئ السبيل أمامنا فلا نتعثر فى سيرنا ولا نبالغ فى أوهامنا . فنضمن تلمس الطريق المأمون . ونختصر السبيل الى الاصلاح .

ان القدرية أو الجبرية بالنسبة للفرد والجماعة أدعى الى بعث روح الرجاء والامل . منها الى بث عوامل اليأس والالم .

وانى قبل أن اطالبك بالاقتناع — أبادر باثبات تناقض وقعت فيه أيها الشعر . دون أن تشعر . أو قل وأنت (تشعر) فأنت اذ تترك للبيئة والوسط التأثير فى الافراد والجماعة كما صرحت فى أبياتك الاولى . اذ تنكر هذا التأثير فى البيتين الثالث والرابع من أبياتك الثانية .

(أرى كل أرض قام فيها نوابغ
فتأثيرها فى النابغين يزول
أرى كل قوم قام فيهم نوابغ
فتأثيرهم فى النابغين قليل)

فأنت تتوهم أنك انما تستثنى النوابغ فقط . وفاتك أن النابغة وليد بيئته . قبل أن يكون وليد نبوغه .

مصطفى فهمى

١ — من المثل الاعلى استمد خياله
عظيم وهانت بيئة وقبيل
٢ — وليس الى الماضى تطلع مصلح
ولكن على قدر الرجاء يصول
٣ — أرى شجراً غض الثمار يطلنى
فلى منه زاد شائق ومقيل
٤ — سقاه شعاع الشمس ماء حياته
وجادت عليه المزن وهى همول
٥ — وفى الخمر معنى ليس فى الكرم مثله
وما الخمر الا الكرم حين يحول
٦ — وليس شبيه القوم مالك أمرهم
سواه اذا اشتد الزحام فضول
٧ — تشابه فى بيئاتهم عظماؤهم
ولم يتشابه سيد وذليل
٨ — من الماء والترب الذى أنت واطئ
ثمار وأزهار لنا وبقول
٩ — وكم بطل أحيا عصوراً كثيرة
فلا تنخدع اما شكاه قبيل

عبد اللطيف النشار

أيها الشاعر !

لا أنكر عليك أن تتولى الدفاع عن العظماء فان محامى العظيم جدير بان يكون أعظم منه حتى يحسن الدفاع عنه . ومن أحق من الشعراء بهذا الشرف الكبير ومن يستطيع سواهم أن يسمو فوق الدهماء والعظماء يحلق بمنطاد الشعر الى أجواز الفضاء . ويسلط تلسكوب خياله فتعنوله الهامات . وتسلس له المشاكل والصعاب ؟

بل من (سوى الشعراء) يستطيع (كما فعلت) أن يصور العظيم رافع الرأس شاخصاً الى مثله الاعلى يستلهمه ويستوحيه . موليا ظهره لبيئته ومحيطه . بل لماضيه وتراثه متطلعا الى المستقبل فى ثقة وأمل . يرتفع على أجنحة الخيال الشعرى ليتفحص تارة فى شجرة يتفيأ فى ظلالها أبناء الانسانية . وتارة اخرى يفتش شمساً تحى باشعتها وحرارتها موات القلوب . وثالثة يستحيل غيثا ينهل منه ظماى النفوس ..؟!

خيال حقا يثير الاعجاب . وتصوير يستحق التقدير . ولا ننكر عليكم معشر الشعراء تشبثكم باهداب الخيال . فهو فوق مايحمل من فن وجمال يفتح أمام التفكير أكبر مجال . ولكن أن يقوم هذا الخيال على انقاض الحقائق . ويرتفع رغم أنف الواقع . فأمر يدفعنا لمناقشته الحساب . لعله يسلم لنا بالحق مرة — كما هز عواطفنا مرات .

لاخلاف فى أن العظيم شخصية ممتازة . يتفرد بصفات قد يشترك ببعضها الافراد . ولكنها لاتتوفر كلها فى كل فرد . وهل يتعارض ذلك مع كون العظيم ثمرة من ثمار البيئة ؟ لك تصر فى حماس على رفض هذه الحقيقة . وقبل أن اقيم الدليل على صحتها . فلنتساءل عن نواحى العظمة التى نعنيها فى حديثنا ؟

أما عظمة الفكر التى يمثلها المخترعون والفلاسفة والعلماء فلا يمكن ان تجد آثارها فى بيئة باديه . أو مجتمع همجى . فلا بد للبيئة وللمجتمع من شروط وصفات تعدها لتخريج عظماء المفكرين بل ان نوع الاختراع ولون الفلسفة . واتجاه العلم كل ذلك يتأثر بطابع البيئة أولا ثم يؤثر فى البيئة بعد ذلك . فالتفاعل متبادل . وانما للبيئة فضل البدء .

وأما عظمة — العمل — التى يمثلها القواد . والساسة . والزعماء . فانها تتوقف على — الرأى العام — أولا وعلى — العوامل الاجتماعية — من اقتصادية ودينية وفكرية وسياسية وتاريخية ثانيا .

فالقائد الذى لايلبى رغبة الرأى العام فى غزو عام أو حرب انتقام ويندفع بدون مناسبة للقتال وفق مزاجه الخاص . لن يجد جنديا واحداً يتبعه . فان وجده . وقفت أمامه العوامل الاجتماعية سداً منيعاً تهزأ منه وتلعب به .

والسياسى مثل الزعيم . لن تقوم لكل منهما قائمة . اذا لم يعتمد على (الرأى العام) . ويحسب له أدق حساب . بل ان السياسى النزيه يفقد غالبا حريته الشخصية فى سبيل الاخلاص لوجهة النظر التى يدافع عنها انصافا واحتراما للرأى العام .

والزعيم الأبى الكريم يستمد قوته المعنوية من روح مواطنيه فاذا خطب فترديد لاصواتهم .

واذا كتب فتعبير عن شعورهم . فاذا حاد عن سبيلهم خرج من زعامتهم . ولا أدل على عمق تأثير الرأى العام فى الزعيم من تصوره منعزلا عن بيئته . منفصلا عن مواطنيه . فهل يحتفظ بزعامته ومكانته فى بيئة غير بيئته . ووسط غير وسطه ؟

ان الزعامة تنمو فى أحضان البيئة أولا . فاذا زعزعت كان لها أن تؤثر ولكن طبقاً لحاجات الجماعة . لا طبقا لاهواء الزعماء .

ان العظيم ترجح كفته اذا قارنته باى فرد من الافراد . ولكنه يتضاءل أمام الجماعة . لان الافراد اذا كانت تجثوا أمام العظماء فان العظيم يجثو أمام الجماعة .

فلا نخلق اليها الشاعر من العظيم صنوا مقدسا لكأنه فوق كل ذى علم عليم . ففوق كل ذى عظمة عظيم .

ومع كل : فقد عرفنا نواحى العظمة : فما هى العظمة نفسها ؟

لقد غالطنا أنفسنا دهوراً طويلة فى تفهم حقيقة العظمة . اذ أحطناها باكوام من النفوس والقدسية حجبت عنا حقيقتها . وحان الوقت الذى يجب أن نميط عنها اللثام . ونواجهها من الامام .

لقد كانت العظمة فى الماضى ضربا من ضروب العبث . اذ لم تكن لها غاية سامية . أو مبادىء معينة . بل كان مثلها الاعلى أن تقدم البشرية قربانا على مذبح شهوتها وهواها فكانت تفتح وتغزو وتتحكم وتتسلط دون تدبير أو تفكير . فكانت أعمالها مرهونة بأوقاتها ، ما أسرع زوالها ، لأنها قامت على الأثرة لا الايثار ، وللرغبة الطارئة ، لا للمصلحة الدائمة ، ولم تترك الا حوادث تأسف لأن آلة السينما لم تظهر فى الماضى لتلتقط مناظرها لعرضها فى دور السينما ليتمتع بها الاطفال ، ويلهو بها الصغار

واذا كان التاريخ قد أعار العظماء من الاهمية أكثر مما يستحقون . وفتح لهم فى صفحاته صدراً رحباً ، فلأنه لم يحسن دراستهم ولأننا قبلنا مبالغته مخدوعين

وسيأتى الوقت الذى فيه تنكمش صفحات تاريخ المجازر البشرية ، لتتضاعف صفحات تاريخ المدنية الحقيقية ، مدنية الانسانية الخالدة .

يجب أن يتطور مقياس العظمة ، فبمقدار مايسهم العظيم فى بناء الانسانية ، بمقدار ماينال من العظمة .

انا قدسنا عظمة الانبياء لانهم وهبوا الانسانية كل شىء ولم يأخذوا منها شيئا . ولانهم تسامو الى توفير السعادة لابناء البشرية أجمعين دون أن تدنسهم أهواؤهم أو يغريهم مجدهم . أو تغرر بهم عظمتهم .

ليكن العظيم لامعا يبنى عظمته على أكتاف الآخرين . وانما من يتقدم للآخرين من نفسه مايعلى بناء الانسانية . ويثبت قواعد المدنية .

لقد عانى عظماء التاريخ الزائفين جهل الشعوب المتغلغل فى العقول . والضعف المشحوذ على النفوس . والوهم السائد فى الاذهان . ولكن البشرية اليوم غيرها بالامس انها تعيش الان بعقلها لا بجسدها . فلن تخدعها العظمة البربرية بعد .

لقد أفاقت الانسانية من خمر العظمة الفردية ولن يضيرها أن ترى نفرا من الشباب العصرى يسلم رأسه نهبا لتأثير هذه الخمر . يرجو تحقيق العظمة لنفسه وهو على أحر من الجمر . ولكنها الانسانية تسير الى الامام لا تحفل بمن لا يحفل بها .

أيها الشاعر !

أشعر اننا متفقون فى الرأى فيما يختص باصلاح المجتمع وبعلاقة الفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد . وتأثير البيئة فى الفرد والجماعة ولكن وقف (العظيم) يباعد بيننا . فانت ترفعه فوق الجماعة . والجماعة لا تقرك على ذلك .

أما وقد أزحت لك الستار عن حقيقة (عظيمك) الذى تمجده وتقدسه وأظهر التحليل السطحى السريع انه رماد تذروه الرياح . فلم يبق بينى وبينك الا أن نتعاون على قبر هذا العظيم فنقبره نقبر فى غير أسف آخر قيد من قيود العبودية التى أذلت الجماعة . وهو قيد العظمة التى تقوم بارجلها على رأس الجماعة .

فلنفسح الطريق أمام العظمة التى تسخر نفسها لخير المجموع . وتنفى لتسعد البشرية . وتفنى لتخلد الانسانية .

مصطفى فهمى

ابراهيم الكاتب

بقلم

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى ربعمائة صفحة

الثمن عشرة قروش غير أجرة البريد

يطلب من المؤلف بجريدة السياسة

ومن دار الترقى بشارع الساحة

والمكتبة التجارية

طيور الماء

اقصيت عن قاتن الروض كما ... أقصى الآثم عن جنته

يممت صوب خضم زاخر ... تلتقط السلوان فى صفحته

دانيات نحوه تحسبها ... تودع الامرار فى لجته

حائرات عصف اليأس بها ... كطريد الخلد فى حيرته

أم ترى تفتنها الحمائه ... وغناء رق فى نغمته

تصحب اليم فهل شىء بها ... أن تقضى العمر فى صحبته ؟

واصلى السعى فما العيش سوى ... أمل نصبو الى فسحته

ورجاء يتناءى كلما ... قرب الساعى الى غايته

كلنا الجائر فى مطلبه ... كلنا السادر فى غفلته

هبطت بالامس قصراً حافلا ... جم الجنات فى جنته

فظلال وغدير ناعس ... يبعث الاحلام فى غفوته

تمرح الاطيار فى مرحته ... شاديات بهوى ربته

غادة اوتيت الحسن الى ... صولجان الملك فى روعته

قد حباها الحسن من آياته ... والصبا الرائع من نضرته

ماحباها الدهر من أحلامها ... والهوى الساحر من نشوته

وجرى الحب رخاء فمضت ... تنهل الكوثر من شرعته

هانت الساعات الاساعة ... رويت منه ومن بهجته

وجرى الحب أليما قاسياً ... بالغ الآلام فى قوته

فاذا الفرقة تذكى برحه ... وتثير النار من جذوته

الرسالات عزاء فالشرى ... ماطوى صدرك من لوعته

وأذيعى الحب فى سطوته ... وأبينى الحب فى فتنته

حملى الطير رسالات الهوى ... ساوة النازح فى غربته

لن يذيع الطير الا نغمة ... فى الدجى الساجى وفى هدأته

تطرق السمع فتشجيه وان ... غاب مر الحب فى نغمته

اسقط الطير رسالات الهوى ... فطواها اليم فى صفحته

وأتى الحسناء فى عثرته ... يسرد الفاجع من قصته

غضبة العاشق فى نشوته ... وجلال الملك فى سطوته

ملكا الحسناء حتى آثرت ... أن ترد الطير عن جنته

باحثا فى اليم عما قد طوى ... عاصف الامواج فى لجته

فمضى الطائر عن جنته ... يقطع الايام فى حيرته

اسكندرية

محمد السيد

عضو الجماعة

حيرة

ارجو الفناء وقلبى ... لما يزل فى شبابه

مستهزئا بالعوادى ... مغمضا فى عذابه

باقى الحوادث طراً ... بضحكة غير آبه

لم يمدد اليأس يوما ... ظلاله فى رحابه

ولم يروعه صعب ... يجد فى تطلابه

ولم يخفه ضريب ... يلقاه من أضرابه

ولم يخب قط فيما ... يرجوه من أحبابه

المجد والحب يمشى ... كلاهما فى ركابه

لا يسأل الدهر شيئا ... الا أتى بجوابه

***

اخشى الفناء وقلبى ... لما يزل فى شبابه

فى الحياة جمال ... لم يبل غض أهابه

وفى الحياة جلال ... لم يخب ضوء شهابه

ما زال يسحر طرفى ... كلاهما بسرابه

يا بؤس للموت يقـ ... ـضى على المحب عن احبابه

وبؤس للكأس يهـ ... ـوى على الثرى بشرابه

عبد الحميد السنوسى المحامى

عضو الجماعة

حضر لمحلات الفرنوانى بالموسكى

بضائع فصل الشتاء وتباع بارخص الاثمان وهى أصواف . بدل جاهزة . قطيفة حرابر . كستور . بياضات مصر . فنلات . جورابات صوف . بطانيات وجميع ما يلزم من الملابس ويوجد للمحل فابريقة للملابس باسعار لا تزاحم

صفحات من (أجندة)

فتـــــــاة بلا قلب

الخميس ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٢

فتـاة اليوم لا تنسى . وأثرهـا فى نفسى غريب . لا أدرى ما الذى عقد لسانى وشل من قدمى فلا أقه باكثر من كلمتين ولم أبادر باللحاق بها حتى اختفت بين الجماهير المحتشدة فى ملهى (لونابارك)

شـعور فى الحقيقـة يشبه شـعوراً قديما أحسست به من سنوات سبع مضت فلا أسجله اليوم لادرى الى أى العواقب يفضى وان كان أشد ما أخشاه أن يكون الظنام واحداً ...

الجمعة ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٢

دخلت الملهى فى الساعة السـابعة مسـاء ومكثت فيه حتى منتصف الليل ولكنى لم أرها أثراً . ما اكثر من كان هنـاك من سيدات وفتيات ولا أقول انهن جميعـاً غير جميـلات ولكن ليس لاحداهن ما لفتاة الامس من سحر وفتنة ... كنت واقفا الى حاجز خشبى يفصـل بينى وبين مائدة كبيرة عليهـا علب عديدة من السجاير والشكولاتة ومن يفلح فى قذف قرشه ويستقر على احداها فلها بلا نزاع . وقد أصبت توفيقـا فيما قذفت من قروش ورأيت فى يدى ثلاث علب من السجاير ورابعة من الشكولاتة . وكانت النـاس ترمى بنقودها على تلك العلب المتناثرة فلا تصيب الا قليلا فاحسست بسرور لهذا التوفيق وراحت الناس تغبطنى على الفوز وتشـجعنى على المضى فى اللعب واذا بضحكة قصيرة تلمعث من خلفى وصـوت رقيق يقول صاحبه « ما دمت موفقا فى اصابة الهدف فقد هذا القرش والعب به لحسابى » استدرت فاذا أمامى فتاة ضاحكة السن تمد لى يداً بضة فيهـا قطعتـان من النقود . لا أذكر الا انى أطلت فيها التحديق وأنا كالمشدوه لا يبدى قولا ولا حركة . ظلت يدهـا ممدودة هنيهة وبقيت صامتا وحسبت هـذا منى اعراضا عن مطلبهـا فاحمر وجهها وتراخت يدهـا قليلا فانتبهت وأمسكت بقطعتى النقود وولت وجهى شـطر مائدة اللعب ويدى تنتفض، قذفت بالقطعة الاولى فالثانية ولكنى لم أصب هدفا فخجلت وبردت أطرافى ثم التفت اليهـا لأقدم اعتـذارى فبادرتنى بقولهـا وهى تتبسم — « هـذا حظى فلا تتكدر وشـكراً لك » فقلت وأنا أمد يدى بعلبة الشـكولاته التى ربحتها من قبل : هل تتفضل الهانم بقبول هذه العلبة الصغيرة التى لم تكلفنى شيئاً »

وكأنها أدركت منى رغبة فى اخفاء فشلى فلم ترفضها وتناولتها منى شاكرة وانصرفت .

حاولت أن الحق بها ولكنى ظللت مسمراً فى مـكانى . وكانت قد غادرت الملهى حين انتهيت الى وجوب البحث عنها . تلك الملاحة الاخاذة لايظل أثرها فى نفسى عظيما وذلك الصوت مايزال يرن فى أذنى عذبا . ولكن ما أشـد أسفى وقد طال انتظارى لهـا اليوم وهى لم تظهر .

الاحد ٢٨ — ٢ — ١٩٣٢

لم يخب اعتقادى فى انى سـوف أراها اليوم ، وهو يوم الاحد الذى يـكثر الاقبال فيه على (لونابارك) . ولكن ما هذا الشعور الذى ملكنى وظل يغمرنى مذ رأيتها لأول مرة . وما هذا الاضطراب الذى كان يشملنى وانا أدور فى رحبات الملهى ؟ وكم كنت أفزع اذا تصورت انها سوف لاتجىء أو قد لايتم عليها بصرى بعد ذلك اليوم ..

ورأيتها بجانب لعبة السيارات فى صحبة فتاة أخرى فندت عنى تنهـدة طويلة وأحسست بأنى ابتسم وانى جد مسرور . ولكن من هذه التى كانت تصحبها . أهى أختها أم صاحبة لها ؟ لم تعجبنى تلك الرفيقة ولا الضحكة العالية التى أطلقتها فى غير استحياء ومرتانى وأنا معتمد بجانبى على حافة السور . ونظرت الى ولست موقنا انها عرفتنى الا أنهـا لاشك قد لحظت نظراتى المسددة اليها .

تبعتها وقلبى مسرع فى دقاته وأنا أخشى أن تغيب لحظـة عن بصرى ؛ كانت المشـكلة الكبرى هى خلق المناسبة التى تمهد للـكلام عليها تذكرنى . وأنا فيما أعتقد فى نفسى شديد الخجل لا أقوى على أن أبادر سـيدة بكلمة . ولـكن الصـادفات قد خدمتنى اذ اتجهت نحو منصة (البخت) وراحت ترمى قروشها فوق علب الشـكولاته فاتخذت مكانى بجانبها وجعلت كلما رمت قذفت أفعل مثلها ولكنى لم أك أحسن منها حظا . فقالت لى بسمة : « أراك اليوم غير موفق » غمرنى السرور لانها ماتزل تذكرنى وانددمجنا فى حديث ، ولكنه غير طويل . و عظم ما أسجله اليوم انى فزت منها بميعاد فى حدائق الجيزة ...

الخميس ٣ مارس سنة ١٩٣٢

أزداد ميلا اليها وشغفا بها برغم انهـا ماتزال لغزا أمامى . لقـد حضرت فى صحبة صديقة أخرى ولـكنى لم أطمئن لوجودها معها فقد كانت ماجنـة خليعة وأخشى أن أقول أكثر من ذلك ولست أدرى مدى العـلاقة بينهما وان كانت قدمتها لى كصديقة لها .

السبت ٥ مارس سنة ١٩٣٢

مقابلات متلاحقة . ان الغموض مايزال يكتنفها وهو يطغى التلاشى . حديث الليلة أبان شيئا يسيرا ولـكن كانى بهـذا الشىء اليسير يزيد الظلام حلـكة . هذه المقـابلات حفرت فى نفسى مجرى عميقا . وكان وجودها معى يبعث فى بدنى انتعاشـا يسرى فى دمى سريان البرء فى الجسم السقيم . وهكذا صرت فى حضورها منبسط النفس منشرح القلب وفى غيبتها سوداوى المزاج حزين القلب .

الاحد ٦ مارس سنة ١٩٣٢

الحب لدى الـكثيرين مزيج من الاستمتاع الروحى والجسدى ولا غرو فقد كان آدم وحواء متصلين اتصالا روحيا وجسديا وهكذا سـنة الوجود ولا قيمة للاتصال البدنى اذا تنـافر مابين الروحين على حين أن الاتصال الروحى لمن اسمى العواطف وان كان يبده البعض لونا من فلسفة الخيال . اذ الاتصال المزدوج سنة الطبيعة ومستمد من صميم الحياة نفسها

لقد أحببتها حبا نقيا خالصا واستجابت لمشاعرى فشغفت بها وتغلغل هواها فى قلبى ممتزجا بالدماء . فما أسعدنى . هل ستدوم هذه العلاقة ؟ ولـكن لم هذا السؤال . ما أجدرنى بمحو هـذه العبـارة فالافق واسع أمامى وسوف لايثقل على القـدر أن يتركنـا سعيدين...

الخميس ١٠ مارس سنة ١٩٣٢

عدت اليوم بزهارى مكتئباً محزونا اذ لم تحضر كما وعدت . وضعتهـا على مكتبى أتطلع اليها وأستنشق أريجها الزكى . قدمت واحدة منها الى ابنة جارنا الصغيرة التى كانت تحوم حولى ففرحت وعادت بعد قليل تتبغى زهرة ثانيـة فقلت ياطفلتى ان الزهر بين يديك الصغيرتين سريع الذبول والفناء الا تركته فى وعاء الماء ينتعش وينعم بالحياة قليلا أولى من بقـائه فى يديك لحظة تعبثين به ثم تمزقينه ورقة بعد ورقة الى لمشفق عليه من يديك القاسيتين وما أحسن أن ندعه فى شـجيراته ليبلغ غاية نموه ونقتم باجتلاء حسنه ونتسم عنقه حتى يدركه الذبول والموات شأن كل حى .

... وقلبى ذاهرة قد تفتح للحب اذ الحب قوام الحياة . واذ أتطلع الى وجه (فبقى) البديع وأرى خيال عينى فى مرآة عينيها تغشانى غمرة طاغية اللذة ويسيل فى كيانى شراب سائغ يجدد الحياة بعد الجمود ، وذ استمع الى نبرات صوتها يتردد صداها فى أذنى أحس بالم يستمد غذاءه من قلبها عن طريق أوتارها الرهيفة ونبراتها المشجية ...

الجمعة ١١ مارس سنة ١٩٣٢

مقابلة فاترة لم تدم أكثر من ساعة واحدة ولا أدرى علة ذلك الفتور ولا ذاك الصمت الذى كان يسود جلستنا . ان الظنون والهواجس كانت تنهشنى نهشا ولا اجسر على الافضاء اليها ببعض ماساورنى نحوها . أتراها قد انصرفت عنى وكان تودداى الى رياء وكذبا ؟ لماذ تخفى عنى الكثير من شئونها ولم تحول مجرى حديثى اذا ماتكلمت عن أهلها وسـألت عن ذويهـا وأقاربها ؟ الا أوفق الى حل هذا اللغز المعقد؟ ولكن مابالها تسير مع فتيات لا أرى لهن حشمة ولا وقاراً ؟ أتكون من معدنهن ؟! أوه . ان هذا لايطاق ..

قامت مستأذنة فى الانصراف اذ تقول أنها تحس ألما فى الامعاء ولم تقبل صاحبتى لها الى الحى الذى تسـكنه كما كنت أفعل من قبل . وقلت هل أراك غداً ؟ قالت لا . غـداً سأستريح فى المنزل ، فقلت مودعا : « قلبى لديك » وأجابت « فى قلبك الخير » وانصرفت

الاحد فى ١٣ — ٣ — ١٩٣٢

زاد قلقى عليها وقد تركتها تشكو ألما فبعثت اليها بهذا الخطاب .

حبيبتى فبقى

افترقنا مساء الجمعة وأنا قلق على صحتك ولـكنك بعثت فى الطمأنينة اذ قلت ان الالم بسيط ينتهى بالبندقة وشرب الشاى قبل النوم . ولـكن اليوم وقد انتصف النهار زاد بى القلق اذ لم تحدثينى بالتلفون لأطمئن على حالك . تنصف النهار وأنا مازال أرقب القادمين من السعاة عسى أن أرى على وجه واحد منهم مايبشرنى بانك على التلفون تنتظرين . واقترب أحدهم منى فازددت خفقان قلبى ولـكنه راح يحدثنى عن عمل مصلحى فسرعان ماهبطت دقات قلبى من اليأس والقلق هأنذا أسجل لك فى هذا الخطاب كل ماعترانى فى نهارى وأنا أقول كيف أصبحت اليوم . هـل قامت معافاة موفورة الصحة أم أقعدها المرض ، وكيف أراها وهـل يكفى أن أستفسر عن حالها بخطاب ارسله ؟ ماتزال الساعة الثانية عشرة والريم ومازلت مترقبا من يناديني لأحدثك بالتلفون . انى متعطش الى الوقوف على صحتك وأحوالك تعطش التائه فى الصحراء وقد ضل طريقـه وجف حلقه الى جرعة ماء تطفىء من سـعير جوفه . انى قلق عليك قلق سكان البيداء على الغيث وقد انقطع عنهم على غير عادة ينظرون الى السماء ويتطلعون الى الآفاق الواسـعة الصافية يعيون فيها الخوف والرجاء عسـاهم يرون سحباً من الغيث قادمة فتسكن نفوسهم ويعاودهم الامل فى حياتهم وحياة زرعهم الذى جف وذوى :

نعم حالى كحال هؤلاء المساكين فأنا لا أول عنهم ظمأ الى وجهك وسيال عينيك ذلك المعين العذب الذى حرمته منذ يومين .

هأنا أنهب من وقت عملى هـذه الدقائق لأسطر لك شـعورى وأنا المحموم ، وهـا هى صورتك ماثلة أمامى بين السطور فأنف قليلا مشدوها حالما أتطلع الى وجهك الضاحك ثم أعود الى استكمال مابدأت ولكن سرعان ماأراها تظل ثانية وكأنى بها شاحبة الوجه عليها من المرض أثر باد فيهتز جسمى وينتفض وأذكر اللحظة التى افترقنا فيها مساء الجمعة وانت متعبة فأوقن بأنك مترالين مريضة وهذا كل عذابى وجحيمى .

الساعة الآن الواحدة والريم وبدأ الامل فى سماع صوتك يتضاءل شيئاً فشيئاً . . . ما الذى منعك عن التحدث الى اليوم ؟ ارى قد سافرت الى الاسكندرية فجأة كما كنت تتوقعين ما احسبك قاسية الى هذا الحد فتغادرين القاهرة على عجل ولا تبعثين الى بكلمة . انك بلاشك هنا معى فى هذا البلد وقد اراك هذا المساء (بافيفى) اذا خطر ببالك انى لا انقطع عن الذهاب الى الحديقة المعهودة وهو ما افعله ولو لم يكن بيننا موعد فهو مكان عزيز غال بذكرياته .

سلام من قلب مضطرم لا يخبو ابداً

الثلاثاء ١٥ — ٣ — ١٩٣٢

رأيتها اليوم فى (لونابارك) فى صحبة شاب اعرفه من الاغنيا العابثين وكانت متعلقة بذراعه ووجهها يطفح بشراء وضحكاتها ترن فى استمرار جرى الدم فى عروقى فى تيارات متعارضة واحسست بالارض تميد تحت قدمى فغامت نفسى واصابنى دوار استندت الى حاجز خشبى وقد صدمنى هذا المشهد الذى كشف لى عن حقيقتها وصحت ظنونى واذا بفتاتى من هؤلاء العابثات بقلوب الشبان اللاتى يبعن بسماتهن واجسادهن بالمال . ليس المرض اذن هو الذى اقعدها عن لقائى فهاهى سليمة معافاة وقد تكون قضت أمسها مع غير من تصحبه اليوم .

شعرت بيد تجذب الطربوش من يسارى وكان وجهى الى الناحيـة الاخرى فالتفت فاذا هى تسألنى عن هـذا التغير الذى انتابنى

وضح فى ملامحة وجهى . صمت وأدرت رأسى الى ناحية اللعب . وأدركت حالة تأثرى فراحت تتعمل اعدادها لمساركتها معى . ولمكنها لم تجب الى التى التى كان يصحبها بكلمة . كانت كلماتها تطن فى أذنى وأنا لا أعى منها شيئا وباغتنى الانفعال أشده ذاغرورقت عيناى على كرة لمحلة الحبيبة المرة التى لقيتها فى حى والحرجت منديلى متظاهرا بمسح الغبار الذى لحق بهما . وسرت صوب الباب اذ لم استطع البقاء لحظة واحدة ولم احدثها بكلمة ...

الخميس فى ٢٧ — ٣ — ١٩٣٢

جاءنى منها هذا الخطاب فلاتحتم به مذكراتى عنها .

عزيزى ...

انت غاضب وساخط على لانى عبثت بعواطفك وكنت تريدنى صادقة فى حبى . ولكن هل فتشت فى صدرى وبين حنايا ضلوعى وعثرت بقلب تبغى منه ما تريد ؟

لن تجد شيئا هناك فقد تمزق وسحق من سنوات مضت . أنا فتاة بلا قلب . وتسألنى من الذى مزقه والتزعه فاقول وبملأ فى الاسف انه بشر منكم . أيحوجنى أمرك الى أن أنبش الماضى فتسيل جروحى المندملة من جديد . أنها قصة دامية تشيبكم معشر الطغاة الصغار . لقد بدأت بحب كالذى أراه منك ومن غيرك فى كل يوم . ولست بالتى ينفذ بصرها الى خفايا القلوب لتستكشف نواياها وأمانى لسان يفيض بالمشاعر ويغرى بالآمال الحلوة فظننت الصدق فيما أسمع وأرى وحسبت اننى ألمس ذروة السعادة فلم أضن بقلبى اهبه لفتاى وأبى الا أن يتعجل الثمرة . وما أضعفنا وأقواكم فى التغرير والكذب وتالها وخلفنى أترقب تحقيق وعده لى بالزواج ولكن طالت الايام ولم أعد أرى له أثرا وانكشفت حالى فغادرت بيت أهلى فى جنح الظلام قبل أن أسمع كلمة الطرد من فمهم .

وأصبحت فى الحياة وحيدة كسيرة النفس مبتة القلب . والعيش على من كانت على شاكلتى عسير وأنا لا أحسن مهنة ولا عملا . فأخذنى من يسر لى عيشا وأغدق على بعض ماله ثم أطغانى بعد أن زهدنى وملّ عشرتى . تعلمت الحرص وادخار المال فالايدى التى تنبسط الآن بالانفاق سوف تغل وتنقبض اذا مسح على الكبر بيده وذبل منى الحسن فانتم لا تشدون الا الجديد الزاهى .

كم نظمت نفسى بالحقد على الرجال وكم أقسمت فى كل ليلة الا أن أكون جبارة قاسية أغزو القلوب وأذل النفوس وأمعن فى الانتقام بغير رحمة ان تلك الابتسامات العريضة التى تستهويكم وتدفعون ثمنها غاليا لا تكلفنى الا أن تنفرج شفتاى ؛ ولو امعنتم فيها التحقيق لادركتم انها تكاد تقطر سما . وهذا الذراع الذى يستقر منى على كتفكم أو كاهلكم فيشيع فيكم السرور وتتخدر منكم الاعصاب لو حية تود لو عصرت منكم الاعناق وأزهقت الروح .

أنت تعجب لهذه النفس الشريرة وتزعم اننى (ميدوسا) تلك المخلوقة التى قرأت عنها فى أساطير اليونان والتى كانت تصعق الرجال بنظراتها وتوردهم حتفهم بثعابينها التى يتكون منها شعرها الطويل ولكنى لست الوحيدة التى ينطوى جسدها على مثل هذه النفس البغيضة بل هى تمس كل امرأة عبث بها الناس وأذلوها بايديهم واتخطوها باقدامهم راحوا يزعمون لانفسهم الطهارة والسمو . أما هى فالفريسة الساقطة .

ضحكت من بعض ماسطرته يدك فى خطابك لى بل فى زعمى ان الورق كان يلتهب من حرارة شعورك وطيب عباراتك . ها . ها . أهكذا تحمل الامر على أنه جد وتظننى بك مولعة معلقة ؟ ان هذا ليبعث فى الغرور والطمأنينة على عملى ولن أخشى بعد اليوم أن ينجو من شباكى أحد

اسمع ياصديقى . لا ترج من امرأة أن يكون لها قلب وأن يكون لها ضمير حى . وهى سلعة بل أداة لهو فى أيدى الناس : لا تتمم عليها ولا ترمها بالقبيحة بل اوث لها واودع لها عند ربك لقد عانت كثيراً

ها أنت قد وقفت على حالى بل ما أحسبك تحفل بى بعد الآن وقد تجردت أمامك وظهرت حقيقتى لك . أما أنا فلا أقوى على التغرير بك خاصة ونفسى أدرى لماذا . ولكن هيهات أن تطمع فى قلب قد مات أن يستجيب لندائك

الجمعة ٢٥ ر ٣ سنة ١٩٣٢

اليوم غادرت فراشى بعد أن لازمتنى الحمى طوال الاسبوع الماضى . وقد قالت لى أمى من (فوق) هذه التى كنت تردد اسمها كثيراً فى مرضك ؟ فوجمت وقلت لا أدرى من أمرها شيئا وما أحسب هذا الامر هذيان الحمى . والان وقد صح جسمى وذهب من كان يلزم فراشى فى كل لحظة فلست أدرى أن كنت ما أزال أهتف باسمها فى مناى أم لا .

عبد العزيز عمر سامى
ليسانسيه فى الحقوق
وعضو بالجماعة

(حاشية) هذه صفحات من مفكرة فقدها صاحبها وعثرت بها وقد استبحت لنفسى نشر هذه القصة منها فليعذرنى فى فضولى

تراجم مصرية وغربية

كليوباترة — اسماعيل باشا — توفيق باشا — محمد قدرى باشا — بطرس غالى باشا — مصطفى كامل باشا — قاسم أمين بك — اسماعيل صبرى باشا — محمود سليمان باشا — عبد الخالق ثروت باشا — بتهوفن — تين — شكسبير — شلى

مزين بصور جميع المترجم لهم ومطبوع طبعه متقنا على ورق صقيل

تأليف

الدكتور محمد حسين هيكل بك

يطلب من ادارة هذه الجريدة
ومن المكاتب الشهيرة

الحيـــــاة فى الريف

أى الحياتين أهنا . عيشة المدن ... أم عيشتى الآن فى ذا الوطن الخشن
قد عشت ماعشت فى أحضان عاصمة ... أحب بها وبما فيها من الفتن
عيناى لم تسبحا الا على لجج ... زرق ولم تعرفا ما خضرة الدمن
وأبصر اليوم أرضا لست أعرفها ... غريبة الجو لولا انها وطنى
لكننى بعد أشتف الجمال بها ... انى لدو لمح بالمنظر الحسن

فى الثغر بدرى وشمسى
وفيه روحى ونفسى
فى الثغر عقلى وحسى
ففيه لبى ودرسى
ففيه أهلى وجلسى
وفيه جبى ورأسى
فى الثغر قلبى وروأسى
فيه سرورى وأنسى
وفيه أرضى وغرسى
قلبت يومى كأمسى
فيه ، وشاهد رمسى

فى الريف هدأة مضطر فليس به ... ما يوقظ النفس من نومة الوسن
الجو لعان فيه غير مكترث ... فى أى صوب تولت وجهة الزمن
هل السماء التى لا ستر يحجبها ... بالعين تنظر دون العقل والفطن
ان السماء التى تبدو لناظرها ... فى الريف تبدو له ان شاء فى المدن

الريف غير حصيف
والريف غير نظيف
فى الريف سم الافوف
وعبء ذل نخيف
شهدته فى الريف
وستر جهل كثيف
على عيون الألوف
قلب اللجوج الشغوف
لا يرتضى بالطفيف

قد ند روحا وطبعا من لد عينا وسمعا
وما ادعاء الصوف
غير ادعاء صخيف

ما عاش بالروح من عا ش قالعا برقيف

عبد اللطيف النشار — وكيل الجماعة

صديقة الطيور

يامثالا للرفق بالحيوان ... بعض هدا . سلمت بالانسان
أنت بين الحمام مثل ملاك ... ذى جناحين من رقيق الحنان
تطعمين الطيور حبا وماء ... وتهم الطيور بالشكران
وقلوب الانام حولك صرعى ... من جريح وفاقد الوجدان
ومذيب على الثرى دم قلب ... تيمنى اشارة بالبنان !
هل رأيت الحمام أصدق حبا ... فشفيت الفؤاد بالسلوان ؟
ليت شعرى ، أفى الحمائم صب ... بات يشدو كشدونا كل آن ؟
وبنات الهديل يبكين شجوا ... كذبته الدموع بالعصيان
فارجعى الطرف نحونا وسلينا ... عن حبيب معذب القلب عان

***

كم تمنيت أن أبيت سعيداً ... مثلما بات طيرها فى أمان
وبنات الهديل مستأنسات ... شاكرات لربة الاحسان
فى سكون وسلوة وهناء ... لم تتم بين حور الجنان
يالسانى لعلها تعشق الطير ... من وعل الشقاء رهن اللسان
ما تراها تبغيها الوجد بثا ... فى اقتراب والفة وتدانى
قد أحبت جوارها وحماها ... ونسيت بها عن الطيران
آنسات الى « بثينة » لكن ... هن يحسبنها من الغزلان
منظراً كان فى الحديقة شعراً ... نظمته الطيور للاغصان
أنت بيت القصيد فيه وعمرى ... فيك حسن البنا وحسن المعانى

اليوزباشى — زكى غازى
عضو جماعة نشر الثقافة

مكتبة الاسكندرية

للاسكندرية تاريخ مجيد يتصل بالفنون والادب والعقل البشري من عدة نواح . ذلك انه عند ماقام البطالسة ملوكا على مصر بعد وفاة الاسكندر وجعلوا الاسكندرية قاعدة ملكهم أخذوا في تشجيع العلم والادب .

وكان لاولهم ومؤسس دولتهم أكبر الفضل وأجل الاثر في ذلك . فانه بعد أن توطدت أركان عرشه في مصر وتفرغ لسياسة الدولة وتمكين رجاياه من اجتناء ثمار السلم بعد الحروب الطويلة التي قام بها غاب وفاة الاسكندر المقدوني شاء أن يجعل من الاسكندرية مدينة تطاول في الثقافة القائمة فيها أثينا عاصمة الفلسفة والادب والفنون . فعضد العلوم والمعارف واكرم الذين كانوا يشتغلون في ترقيتها وابتنى دور العلم وأجرى عليها الارزاق . وتابعه خلفه في ذلك وهو بطليموس (فيلا دلف) أي المحب لاخوته وهو لقب أطلق عليه تهكما لانه كان يبغض اخوته وسائر أعضاء أسرته .

شاعت العلوم والفنون اذن في مدينة الاسكندرية وقصدها العلماء والشعراء والفلاسفة من بلاد اليونان وأصبح للاسكندريين مذهب خاص للفن والفلسفة والشعر عرف بهم . وقد قام هذا المذهب على أنقاض المذاهب اليونانية وكان ينقصه ميزتا الابداع والخلق اللتان كانتا لاصقتين بالتفكير اليوناني فاقتصر فن النحت على الزخرفة والبهرجة ، واقتصر الشعر على اللفظ وأنواع البديع ، واقتصر الادب على ابحاث اللغة والنحو ، وأصبحت الفلسفة جدلا عقيما . ويسمون هذا المذهب (الافلاطونية الجديدة) . قال المؤرخ جيبون « هم أهل فكر وعمل (يريد رجال الافلاطونية الجديدة) غير انهم زادوا الامور تعقيدا لانهم لم يفقهوا أمرا في الفلسفة . فلقد أقلعوا عن درس علوم الاخلاق والطبيعة والرياضة وراحوا يبحثون في التفاصيل الجدلية فيما وراء الطبيعة »

ومهما تكن قيمة هذا الطور من ناحية التفكير فقد كان ظاهرة جديرة بالاهتمام من فلواهر الذكاء والعقل البشري . ومهما تكن قيمة رجاله فلا يفكر مفكر انه قام فيهم أعلام كبار كان لهم الاثر البعيد في تطور الشعر والفلسفة وبعض أنواع العلوم كالجغرافيا والفلك

ومما ساعد على نمو العلم والفلسفة ونشر الثقافة العامة والخاصة قيام دور العلم ومعاهده وانشاء المكاتب التي جمعت وحوت انفس نتاج الفكر البشري .

ومن هذه المكاتب (مكتبة الاسكندرية) التي كان لها شأن يذكر في التاريخ من نواح عدة وأخصها الجدل العظيم الذي قام حول زعم بعضهم أن العرب حين دخلوا الاسكندرية فاتحين احرقوها فاندثرت باتلافها كتب عديدة قيمة .

على أنه قبل أن نعرض لهذا القول ونمحصه على ضوء التاريخ يجدر بنا أن نتقدم ببحث موجز عن هذه المكتبة يتبين منه النكبات العديدة التي نزلت بها فنهضت بكتبها وخبت جذواتها .

* * *

ليست مكتبة الاسكندرية أقدم المكاتب المعروفة في التاريخ القديم . فقد روى بعضهم أن الفراعنة من قبل ذلك انشأوا دوراً للكتب كما ان الباحثين اكتشفوا بمدينة نينوى داراً للكتب كانت جامعة منظمة .

أجل ان مكتبة الاسكندرية اذا لم تكن أقدم دور الكتب فقد كانت ولاشك اعظمها ثروة وأدقها نظاما .

روى بعضهم أن بطليموس الاول المسمى « ديمتريوس » هو الذي أسسها وجمع فيها مايتي الف كتاب ، على أن هذه الرواية تحتاج الى براهين تدعمها . وقال آخرون ان بطليموس الثاني « فيلادلف » ابتاع مجموعة كتب ارسطو وكانت ذات قيمة تضم ماتيح للفيلسوف الكبير جمعه من كتب العلم والفلسفة والفنون . وقيل أيضا أن (تيوفرست) حفظ هذه المجموعة ، ثم أهداها ابنه (نيله) الى ملك مصر ، وانه عند وفاة هذا الملك كان يوجد في مكتبة (بروكيوم) ٤٠٠٫٠٠٠ كتاب وفي مكتبة (سيرابيوم) ٤٢٫٨٠٠ كتاب .

كانت في الاسكندرية ايامئذ مكتبتان احداهما المعروفة بمكتبة (بروكيوم) وهي الاصل والثانية المعروفة بمكتبة (سيرابيوم) وهي الفرع وكانت الاولى توجد في المتحف الذي اسس بجوار قصر الملك ، وكان هذا القصر قائما وقتئذ في مكان يقرب من محطة الرمل اليوم . وقد انشئت هذه المكتبة لخدمة العلماء الذين كانوا في المتحف . ذلك لان هذا المتحف كان أشبه بمجمع علمي يسكن داره الرحبة جماعة من العلماء والفلاسفة والادباء الذين وقفوا حياتهم على البحث والتدقيق

ولما ضاقت هذه المكتبة بما فيها من جهة وتعددت فيها نسخات الكتاب الواحد من جهة أخرى ، أنشأوا مكتبة ثانية كانت فرعا للاولى في (السيرابيوم) وهو هيكل شيد لعبادة الاله المصري (سيرابيس) وكان هذا الهيكل قائما في الجنوب الغربي من المدينة على التل الذي يقوم عليه اليوم (عمود السواري)

نعود بعد هذا البيان الى مجادلة الارقام التي أوردناها وهي ٤٠٠٫٠٠٠ في مكتبة (بروكيوم) و ٤٢٫٨٠٠ في مكتبة « سيرابيوم » وهي أرقام مبالغ فيها ولا شك لان كلمة كتاب كانت تطلق على كل ملف من أوراق البردي . وكانت أغلب المصنفات الكبيرة مؤلفة من ملفات عديدة صغيرة . فقد كانت كتب هوميروس في ثمانية وأربعين ملفا ، ومصنفات « بوليب » في أربعين ، وقد اضطر القوم أيامئذ الى تقسيم هذه المؤلفات على هذا النحو لسرعة عطب أوراق البردي وصعوبة الانتفاع بالمؤلف الكبير المكتوب على هذه الاوراق أضف الى هذا الكتب القصيرة والرسائل المختصرة التي كان المؤلفون يقبلون على تصنيفها أيامئذ ، وكانت عديدة

وبعد وفاة بطليموس فيلادلف سلك خلفاؤه على نهجه في العناية بجمع الكتب . وقد ذكر بعض المؤرخين أن البطالسة لم يتورعوا عن استعمال شتى الاساليب المحرمة للوصول الى غايتهم وزيادة ثروة مكتبتهم العلمية .

من ذلك أن بطليموس الثالث الملقب « افرجيت » أي المحسن أمر بان على كل من يأتي الاسكندرية من العلماء أن يقدم كتبه الى المكتبة فيحتفظ بالاصل فيها ويعطى له نسخة منها على ورق بردي عادي .

ومن ذلك أن هذا العاهل طلب الى مدينة أثينا القصص التمثيلية التي الفها (سوفوكليس) و (أوريبيدس) و (أسكيلوس) لكي ينسخها ويعيدها اليها . واستودعها خمسة عشر مثقالا من الفضة تأمينا عليها . ولما صارت هذه القصص لديه احتفظ بالاصل وأرجع الى الاثنيين نسخا منها راغبا اليهم بالاحتفاظ بالمال الذين استودعهم تأمينا عليها

ورأى ملك آخر من البطالسة أن ملك (برغامه) يزاحمه على اقتناء الكتب وانسخها فاصدر أمره بمنع تصدير ورق البردي اليه فاضطر تجار تلك المملكة الى اختراع ورق آخر هو المعروف اليوم بورق الرق .

على أن البطالسة لم يكتفوا باقتناء الكتب اليونانية بل انهم عنوا كذلك بنقل كتب اللغات الاخرى الى اليونانية . وأشهر هذه المترجمات نقل التوراة من اللغة العبرية الى اليونانية بامر بطليموس فيلادلف . وحكاية هذه الترجمة مشهورة تتلخص في اتفاق اثنين وسبعين من العلماء في ترجمتهم المختلفة التي قاموا بها في وقت واحد كل بمفرده . وقد وصف (فيلن) هذه القصة بانها (حكاية حمقاء) ويرجح بعضهم التوراة الى اليونانية الى ما بعد عهد هذا الملك .

ومما زاد في ثروة مكتبة الاسكندرية ان الفاتح الروماني (مارك انطونيوس) عشيق كليو باطرا عند ما انتصر على « برغامه » انتزع منها مكتبتها الكبيرة التي كانت تحوي مايتي الف كتاب وأهداها الى عشيقته الملكة المصرية الشهيرة .

وهكذا أصبحت مكتبة الاسكندرية من أشهر مكاتب العالم بفضل عناية البطالسة والعلماء الذين تولوا ادارتها . وقد حفظ التاريخ أسماء الثلاثة الاولين منهم وهم « زينودوتوس » و « كاليماكوس » و « ابرانوثينوس »

* * *

على أن هذه المكتبة الشهيرة لم تحظ دائما بمثل هذا التعهد فقد أصيبت بنكبات عديدة .

وأول هذه النكبات ماروى من أن (يوليوس قيصر) عندما جاء الاسكندرية فاتحا واستقر فيها بين أبهة الملك وأمر هوى كليو باطرا ثائر به الاسكندريون مرة وحاصروه في (بروكيوم) فخاف أن يستولي الثائرون على مراكبه البحرية فيستعملونها في محاربته فأمر باحراقها . ويقال ان اللهب اتصل بالمكتبة فاحرق اربعمائة الف كتاب

وهذه النكبة الاولى مشكوك فيها كثير الاثر أول ماورد ذكرها كان في كتب الخطابة وأما المؤرخون المعاصرون فلم يذكروها . كذلك لانجد لها أثراً في خطابات شيشرون وكتبه وهو الاديب الكبير المحب للتآليف والولوع باقتناء أشهر المصنفات ، وكذلك لانجد لهذا الخبر أثرا في مذكرات قيصر . فلو كانت النكبة فادحة كما قيل لعرض لها في هذه المذكرات التي كتبها وحاول أن يبرىء نفسه من تبعتها وقد ذكر قيصر ان الاسكندرية كانت في شكل بنائها وطريقته غير قابلة لسريان النار فيها . وبعد فلعل النار لم تصب غير مستودعات كتب مهملة لاقيمة لها كانت على شاطىء البحر .

* * *

على أن الدمار أخذ يلحق بهذه المكتبة ويفعل فيها فعله الرائع بعد أن استتب الامر للرومان في مصر وخاصة في أواخر القرن الثاني للمسيح وما بعده . فليس مستبعداً على روما أن تقتعب من هذه المكتبة أثمن كتبها ، كما انه من الصعب أن نقول ان المكتبة لم تصب بأذى في عهد اضطهادات (كركلا) الفظيعة وفي عام ٢٧٠ أمر الامبراطور (أوريليانوس) بهدم (براكيوم) فهرب علماء المتحف الى هيكل (سيرابيوم) واعتصموا فيه فكان آخر موئل للعلم في الاسكندرية ولاح لبعضهم الى القسطنطينية . ومعنى هذا نستطيع أن نقرر ان مكتبة (براكيوم) وهي الاصل قد هدمت في القرن الثالث وأصبحت أثراً بعد عين .

وكان انتشار المسيحية ضربة قاضية على مكتبة الاسكندرية . ففي عام ٣٩١ استصدر البطريرك (تيوفيل) أمراً من الامبراطور بان يقضي على عبادة الاوثان في الاسكندرية فضاء مبرما لتقوم النصرانية مقامها . فوجه حملة خاصة الى (سيرابيوم) لان هذا الهيكل كان اخر موئل لعبادة الاصنام فاستولى عليه وأحرقه وحطم صنم (سيرابيس) الذي كان منصوبا فيه .

على ان بنايات الهيكل لم تهدم جميعها ولكن القرائن تضطرنا الى الاعتقاد بأن المكتبة لم تسلم من الحريق . وعليه فقد صار عسيراً أن نصدق انه كان بالاسكندرية مكتبة كبيرة بعد أواخر القرن الرابع . ويقول الاستاذ برتشيا ان ماقاله (أوروز) عام ٤١٦ انه رأى خزائن كتب الهيكل فارغة من الكتب بدل — مهما اختلفوا في تفسير هذا القول — على انه لم يكن في الاسكندرية وقتئذ مكتبة عامة هامة .

وليس معنى هذا ان الاسكندرية خلت بعد ذلك من الكتب لان من المحتمل انه كان فيها مكاتب خاصة عديدة عن بعض ذوي المكانة والثراء أو في الاديرة أو في مدارس اللغويين والفلاسفة . وقد ظلت هذه المدارس عامرة زاهية الى أواخر القرن الخامس .

* * *

فتح المسلمون الاسكندرية عام ٦٤٠ للمسيح و ٢٠ للهجرة في عهد عمر بن الخطاب . فتحها عمرو بن العاص بعد قتال وممانعة بعد فتح مصر ويقول ابن العبري بل انه فتح (مصر عنوة وفتح الاسكندرية صلحاً)

والاشاعة المتداولة هي ان ابن العاص بعد فتح الاسكندرية رغب اليه (يوحنا القراماطيق) أن يعطيه كتب الفلاسفة التي بدار الكتب فسأل عمرو الى اجابة رغبته ثم خشي أن لا يأذن له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فحرر له يخبره بهذا الطلب فكتب اليه أمير المؤمنين ان كانت

محتوى هذه الكتب ما فى القرآن فليس لنا حاجة بها والا فلا فائدة لنا فيها . وعلى كلا الحالين ينبغى حرقها . فاعطيت هذه الكتب لحمامات الاسكندرية فاستعملت فى وقودها أشهراً متوالية .

ونجد المؤرخين الحديثين على اختلاف فى تصديق هذه الرواية ونفيها . ويزعم بعضهم ان أول من روى هذا الحادث المؤلم أبو الفرج الملطى المعروف بابن العبرى فى كتابه « تاريخ مختصر الدول » وهو من رجال القرن السابع للهجرة

وينكر بعض الباحثين رواية ابى الفرج لأنه نصرانى وانه أراد منها النيل من الاسلام وان أبا الفرج من والد يهودى واعتنق النصرانية فشب ابنه على هذه الديانة ودخل الكهنوت ورقى فى مدارجه حتى صار أسقفاً ويقولون كذلك ان الرواية مدسوسة عليه لأن التاريخ الذى وضعه باللغة السريانية وتاريخه العربى ترجمة له قام بها المؤلف بعد حين من كتابة تاريخه بالسريانية — ان هذا التاريخ خلو من ذكر حادثة حريق المكتبة

ويقول الاستاذ محمد مسعود فى كتابه « المنحة الدهرية فى تخطيط مدينة الاسكندرية » انه يظهر ان هذه الرسالة (مشيراً الى كتاب عمر بن الخطاب) لم ترسل الى عمرو بن العاص بل أرسلت الى سعد بن ابى وقاص وذلك انه لما فتحت أرض فارس ووجدت فيها كتب كثيرة كتب هذا القائد الى عمر بن الخطاب ليستأذن فى شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب اليه عمر رضى الله عنه ان اطرحوها فى الماء فان يكن فيها هدى فقد هدانا الله باهدى منه وان كان ضلالا فقد كفانا الله فطرحوها فى الماء والنار .

ويرد الذين يؤيدون خبر حريق مكتبة الاسكندرية بامر عمر بن الخطاب ان أبا الفرج الملطى ليس أول من ذكر خبر حريقها وانه تقدمه مؤرخون مسلمون ذكروا ذلك .

ولا نرى بدأ هنا من ايراد نصوص هؤلاء المؤرخين الذين ذكروا خبر حريق المكتبة ثم نعود للتعليق عليها .

أول من ذكر خبر حريق مكتبة الاسكندرية الرحالة عبد اللطيف البغدادى فى (كتاب الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر) كما جاء فى طبعة (المجلة الجديدة) أو كتاب (الافادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار) كما جاء فى كتب أخرى . وقد زار البغدادى مصر فى أواخر القرن السادس وتوفى عام ٦٢٩ للهجرة وقد ذكر فى كتابه ما شاهده فى مصر من الآثار وألم بالكثير من أحوالها الاجتماعية . وهذا ما قاله فى صدد المكتبة :

(ورأيت أيضاً حول عمود السوارى من هذه الاعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور . ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والاعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها . وأرى انه الرواق الذى كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيعته من بعده . وانه دار الملك بناها الاسكندر حين بنى مدينته . وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه »

ويأتى بعد عبد اللطيف البغدادى القاضى الاكرم جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف ابن ابراهيم القفطى المتوفى عام ٦٤٢ للهجرة وقد ولد بمدينة قفط بصعيد مصر وتفقه بالعلم وأقام ببيت المقدس ثم جاء حلب وتولى القضاء فيها على عهد الملك الظاهر وكان صدراً محتشما جمع من الكتب مالا يوصف وكانوا يحملونها اليه من الآفاق وكانت مكتبته تساوى خمسين الف دينار . ولم يكن يحب من الدنيا سواها . وله حكايات غريبة عن غرامه بالمكتبة ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته للناصر صاحب حلب . ومن أهم مؤلفات القفطى كتابه « أخبار العلماء باخبار الحكماء » وهو معجم تاريخى للفلاسفة والاطباء والعلماء الطبيعيين وأصحاب الرياضيات واللغة من العرب وغيرهم مرتب على الحروف الابجدية وقد روى فى ترجمة يحيى النحوى وهو يوحنا الغراماطيقى الذى ذكرناه وبعض الافرنج يسميه « يوحنا فيلوبونوس » قال :

وعاش (يحيى النحوى) الى أن فتح عمرو ابن العاص مصر والاسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده ماجرى له مع النصارى (اشارة الى ما كان من أمره بعد انكاره عقيدة التثليث وطرده من الكهنوت) فأكرمه عمرو ورأى له موضعا وسمع كلامه فى ابطال التثليث فاعجبه ، وسمع كلامه أيضا فى انقضاء الدهر فنفت به . وشاهد من حجته المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم يكن للعرب بها انسة ماهاله . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه ثم قال له يحيى يوما « انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وحتمت على كل الاجناس الموصوفة الموجودة بها فاما مالك به انتفاع فلا اعارضك فيه وأما ما لا نفع لكم به فنحن أولى به فأمر بالافراج عنه » فقال له عمرو « وما الذى تحتاج اليه » قال : (كتب الحكمة التى فى الخزائن الملوكية وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون اليها ولا نفع لكم بها)

فقال له « ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ؟ »

فقال له يحيى : « ان بطولو مادس فيلاد لنس من ملوك الاسكندرية لما ملك حبب اليه العلم والعلماء وخص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن جمعت وولى أمرها رجلا يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم اليه بالاجتهاد فى جمعها وتحصيلها والمبالغة فى أثمانها وترغيب تجارها ففعل واجتمع من ذلك فى مدة خمسون الف كتاب ومائة وعشرون كتابا . ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة أترى بقى فى الارض من كتب العلم ما لم يكن عندنا ؟

فقال له زميرة : قد بقى فى الدنيا شىء فى الصقد والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم .

فعجب الملك من ذلك وقال له : دم على التحصيل ، فلم يزل على ذلك الى أن مات . وهذه المكتبة لم تزل محروسة محفوظة راعيها كل من يلى الامر من الملوك واتباعهم الى وقتنا هذا » .

فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له : « لا يمكننى ان آمر فيها بامر الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » وكتب الى عمر وعرفه بقول يحيى الذى ذكر واستأذنه ما الذى يصنعه فيها فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « وأما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة اليها فتقدم باعدامها » فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها فى مواقدها وذكرت عدة الحمامات يومئذ وانسبتها فذكروا أنها استنفدت فى ستة أشهر فاعظم ما جرى واعجب »

فعبد اللطيف البغدادى والقفطى اذن رويا خبر حريق مكتبة الاسكندرية قبل أبى الفرج الملطى وقد اختصر الاول وأسهب الثانى وكانا متعاصرين .

وجاء بعدهما ابو الفرج المتوفى عام ٦٨٤ للهجرة فاذا روايته لا تختلف كثيراً عن رواية القفطى بل لعله نقلها عنه ، ولا عجب فقد عاش كلاهما فى اقليم واحد . وفى رواية ابى الفرج مواضع منقولة بالحرف عن القفطى وقد ذكر فى تاريخه انه كان فى عهد الفتح الاسلامى بالاسكندرية شخص « اشتهر بين الاسلاميين بيحيى المعروف عندنا بغراماطيقوس أى النحوى . وكان اسكندريا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة ساورى ثم رجع عما تعتقد فى التثليث . . . . . » الى أن قال :

« وعاش يحيى الغراماطيقى الى أن فتح عمرو ابن العاص مدينة الاسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها انسة ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه ثم قال له يحيى يوما « انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا نعارضك فيه ومالا انتفاع لك به فنحن أولى به » فقال له عمرو : « وما الذى تحتاج اليه؟ » قال : (كتب الحكمة التى فى الخزائن الملوكية) فقال له عمرو : « هذا لا يمكننى أن امر فيه الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » فكتب الى عمر يعرفه قول يحى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : (وأما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه فتقدم باعدامها)

فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها فى مواقدها فاستنفدت فى مدة ستة أشهر فاعظم ما جرى واعجب

هذه هى النصوص التاريخية الاولى التى ورد فيها ذكر حريق مكتبة الاسكندرية . والغريب فى أمرها أن كل مؤرخ من هؤلاء الثلاثة يذكرها بطريقة تقريرية لا تدع شكا فى ذهن القارىء .

ولكن ترى عن أى المصادر أخذ عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى وكلاهما من رجال القرن السادس للهجرة ؟ هذا ما نجهله لان مؤرخى الفتوحات الاسلامية وهم عديدون لم يذكروا شيئا من هذا القبيل . أترى هما نقلا عن اشاعة كانت متداولة فى مصر أيامئذ؟ يقول جرجى زيدان « والغالب أنهم (يعنى مؤرخى الفتوحات الاسلامية) ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب . فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ، أو لعل لذلك سببا آخر » .

ولكن هذا زعم لم يقم الى اليوم برهان واحد على تأييده . واذا صح فلماذا ذكرها القفطى وهو (القاضى الاكرم) كما كان يلقب؟؟

فالمسألة من هذه الناحية مبهمة أشد الابهام وهى تعتبر سراً من أسرار التاريخ . على اننا اذا فحصناها على ضوء تاريخ المكتبة القديم الذى ذكرناه استطعنا أن ننفيها نفياً باتاً لانه لم يكن فى عهد فتح الاسكندرية مكتبة عامة كبيرة فيها من الكتب ما يكفى مواقد حمامات المدينة ستة شهور كاملة

أضف الى هذا أن بعض مؤرخى الافرنج يقرر أن (يوحنا فيلوبونوس) أو (يحيى النحوى) توفى قبل أن فتح العرب الاسكندرية . وهذا الرأى يضعف رواية القفطى وأبى الفرج ويجعل بعض المؤرخين أمثال (بوتلر) الانجليزى (يعتقدون ان رواية أبى الفرج خرافة خالية تماما من أى أساس تاريخى)

على ان هذه الرواية لا تزال متداولة . وقد يزعم البعض انه ربما أعيد فى الاسكندرية جمع المكتبة بعد أن دمرها البطريرك تيوفيل ، وهذا على بعده عن المعقول قد يكون جائزاً . لذلك نضطر الى القول ان مسألة حرق مكتبة الاسكندرية على ما يتبين من بعدها عن الحقيقة واضطراب الدلائل على صحتها بل قيام الدلائل جميعها على نفيها — ان هذه المسألة لا تزال قائمة تدخل بعض الشك الى النفوس حتى تكتشف نصوص ووثائق تدل على نفيها أو اثباتها سواء أكانت هذه النصوص خاصة باعادة تأليف المكتبة بعد حرقها فى القرن الثالث للمسيح أو خاصة بالفتح العربى واردة على لسان مؤرخى هذا الفتح الذين شهدوه أو كتبوا تاريخه بعد ذلك بقليل

وما دامت هذه الوثائق لا توجد الآن فان البحث العلمى الخالص يضطرنا الى نفى حرق العرب لمكتبة الاسكندرية نفياً باتاً . ولكن اختلاف وجهة النظر فيها يحملنا على الشك فى وثائقها من حيث هى اشاعة متداولة (١)

صديق شيبوب
عضو الجماعة

---

(١) مصادر البحث

(دليل مدينة الاسكندرية) للاستاذ برتشيا .

(المنحة الدهرية فى تخطيط مدينة الاسكندرية) للاستاذ محمد مسعود

(تاريخ مصر الحديث) للمرحوم جرجى زيدان .

(دائرة المعارف) للبستانى

تعليق وتلخيص

فاوست

لم تكن فاوست قصة جوته الخالدة على الزمان لانها مأساة الفضيلة أو لانها مأساة العلم بل لانها مأساة الانسان فى كل زمان

لكل كاتب طريقته فى كيف يتقدم للجمهور القراء بالفكرة وقد البسها الثوب الجميل الذى صنعه . وبمقدار مافى ذلك الثوب من روعة وجلال واخذة وسحر يكون تقدير الناس لفن الكاتب ، والتقدير حينذاك لا يكون للفكرة فى ذاتها وانما للثوب الجميل الرائع الذى لبسته اذ قد يكون الكاتب قد سبقه غيره الى الادلاء بالفكرة فلا يكون له حينذاك فضل ابتكارها وانما فضله محصور فى كيفية اظهارهذه الفكرة الى حيز الوجود فى ثوب جديد أخاذ بالالباب .

هكذا كان شأن جوتيه فى فاوست فهو يحدثنا عن الخير والشر . والخير والشر ليسا من الجدة فى شىء بل هما قديمان فى جوف الزمان قدم الانسان .

عرف الانسان الشر حينما أعوزه الخير أو حينما أعوزه أن ينال من الحياة أبهج ألوانها واشد متاعها . فكان غيوراً حسودا جشعا طموحا . وحينما أصابت نفسه صفات الجشع وألمت به الاثرة وأطاحت به من الحياة ظروف منعت عنه ما ناله غيره فى ظروف سعيدة هنا طبعت نفسه بطابع من الشر راسخ ثم تهذب هذا الطابع وتضخم مع الزمان وكانت له ألوان شتى فكان للشر مناح كثيرة عديدة

فليس فى ذكر الشر أو الخير شىء جديد وان صورهما جوتيه للقراء فى قصته فانه لم يأت برأى جديد وانما الجديد هو ذلك الثوب الرائع الذى ألبسه الشاعر العظيم للعنصرين اللذين لا تخلو منهما نفس بشرية .

وقد يكون الجديد فى قصة فاوست ان الانسان الذى يكرس حياته ويخصص جميع وقته للعلوم والفنون يصيبه السأم من هذه الحياة التى يعدها مماثلة لا تتغير فتثور فى صميمه تلك النفس العطشى الى الحياة المادية حياة اللذة والاستمتاع والتى كانت فى موقف الحرمان حينما كان الفكر لاهيا بين أسفار العلوم . فلعل الفكرة فى القصة أن الانسان ليس فى ميسوره مهما خصص وقته فى استلهام الارواح واكتناه ماتحتويه كتب المعرفة ان ينسى تلك الناحية المادية من الحياة وتلك الرغبة الملحة الى الاستمتاع ذلك النوع من الاستمتاع الذى يعده العالم دنيئا ليس يتفق مع تلك الثقافة الذهنية التى تثقفها والتى تعد أبعد ما يكون عن لذة الجسم والمتعة المادية الرخيصة الفانية التى تمضى بانقضاء السويعات القصيرة الاجل ولا تخلف فى النفس غير الشعور بالحنق والنفران كلما الالتذاذ غير مشروع

لقد اصطلح الناس قديما على تصوير الخير بالله وادع جميل الصورة حلو الحديث رحيم بالعالمين يستمع الى الدعوات ويلبى النداء ويمنح الخير والبركات . كما اصطلحوا على تصوير الشر بأنه غشوم طاغية له جسد ضخم أعظم جثة من جسم الانسان . كما أن له نفسا شريرة لا تفكر الا فى المصائب والرزايا . وجريا على هذا التصوير المبدئى للعالم الروحانى مضى جوته فى تسطير قصته وهو لم يكن يتهكم حينما فاجأ القارىء بهذا الحوار الذى ابتدأ به . حوار كان أشخاصه الملائكة الثلاثة امرافيل وجبريل وميكائيل وكل يصف العناصر الكونية مستشعراً فى نفسه ماعليه العظمة الالهية والقدرة العلوية من فخامة وقوة وروعة ثم يظهر بعد ذلك ابليس شيخ الشياطين ويكون بينه وبين الرب حديث تفهم منه أن ابليس لا يرى فى العالم الا الفساد والشر والرذيلة والقبح والافك وليس يرى فيها قبسا من النور ولا يلمح فى أرجائها مايضاد تلك الصفات حتى ان الرب يتساءل فيحدثه . أو لا ترى فى العالم غير الجانب الاسود القبيح فيكون رد ابليس أن ليس فى العالم غير القبح وكأنما أراد الله أن يقدم الدليل على ابليس على ان الدنيا بخير وعلى ان بين الناس من تهذبت نفوسهم وسمت شمائلهم فيقول له مستفهما

أو تعرف فاوست ؟

وابليس الذى يعرف الناس جميعا أجاب بان نعم

وحينذاك يبدأ الرهان بين الله والشيطان كذلك الرهان الذى قام بين الشمس والهواء يوما قوى واكبر تأثيراً فى الانسان فكانت القلبة للشمس المنيرة المضيئة حينما المحرقة اللافحة حينا آخر .

بعد ذلك تبدأ القصة فاذا هى رهان صحيح واذا فاوست المسكين الذى لا يرى العالم ولا يفهم من الحياة الا جانب الخير فهما ولا يتصل بالناس وانما حياته جميعها اطلاع واستطلاع بحث واستكشاف اذا فاوست هنا قد رؤى ان يكون هو محك التجربة وموضع الرهان فيتنازعه الرب والشيطان .

بعد هذا الحوار تغلق السماء ويتفرق الملائكة ويبقى ابليس .

***

اذا بدأت القصة فأنت أمام الدكتور فاوست فى غرفته الضيقة المرتفعة السقف المكدسة بالكتب والاسفار يملوها الغبار واذا أنت أمام عالم سئم العلم وكره البحث والاطلاع متبرم بالحياة التى يحياها بل انه يصفها بانها حياة لا تحياها الكلاب فهو حاقد ناقم يريد أن يلتذ بالطبيعة المليئة التى خلقها الله لينعم بها الانسان وبينما هو فى ثورته العنيفة اذ يقلب بين يديه كتابا يشعره بالقوة واليأس فيقرأ عزيمة الروح — وفاوست قد درس السحر وتعلم استحضار الارواح والاشباح — فاذا بالروح التى يطلبها قد تجسمت أمامه صورة بشعة مخيفة لا يطيق رؤيتها وهو التائق الى رؤياها . وهكذا الساحر يخشى الارواح التى يستحضرها ويفزع منها وبينما هو يناجى هذا الروح وقد شعر بانه وجد فيه صديقا فى هذه الوحدة المؤلمة التى توحى اليه بالانتحار روضم حد لحياته البائسة المترعة بالالام والاوصاب اذا بتلميذه فاجتر يدخل غرفته وقد سئم مناجاته وظنه وهو يتحدث الى الروح فى صوت مرتفع انه يتلو مأساة يونانية

ويكون ثم حديث بينهما عن فضل الكتب القديمة اذ هى تمثل للمحدثين الاعصر الخالية وما خلف الحكماء من اثار فنية وعلمية

وبعد ذلك يخرج التلميذ فاذا فاوست وحده واذا به قد عاد الى الروح يناجيها وهو فى مناجاته يعترف بانه رغما من العلم الغزير الذى اكتسب مازال كالعودة الحقيرة التى ترحف فى التراب وتتغذى من التراب فاذا داسها قدم هلكت وكان مثواها فى التراب .

وتطيف به حينذاك نقمة على جميع ماتحتوى الغرفة فيتحدث منهكما الى الآلات والاجهزة والامتعة اذ هى تمثل له مالاقى فى السنين الماضية الطويلة من تعب ونصب فى استخراج دقائق العلوم واكتشاف أسرار التراكيب . ثم اذا عنياه قد ثبتنا على زجاجة صغيرة اجتذبته اليها فمضى يناجيها ويتطلع الى ارتشاف بعض قطرات من السائل المخيف الذى يحتويها . ذلك السائل الذى اذا جرع منه جرعة أرقدته الرقدة التى لا حس فيها ولا حراك .

وبينما هو يرفع الزجاجة الى فمه وكانت شمس الصباح توشك ان تنير الاكوان ارتفعت فى الجو دقات النواقيس وطرقت سمعه أناشيد العيد ايذانا بحلول عيد الفصح

وكان نشيد المنشدين عذبا ورنين الاجراس جميلا على السمع فتوقف فاوست عن الشرب ومضى يستمع فى شغف ولهفة وتذكر أن يوم الافتخار يوم عيد ينتظره الناس ليستمعوا فيه بكل شهى لذيذ ويذكره العيد بايام الصبا التى خلت حيث كان يلهو ويلعب مع اترابه الصغار وتحمل الذكرى فى طياتها حب الحياة والرغبة فى البقاء

***

ومضى الناس على اختلاف طبقاتهم الى خارج المدينة يطلبون الرياضة فى العراء . العمال منهم يفكرون فى ارتياد ألحان لاجتراع ما يحلو لهم من فاخر الصهباء وليغازلوا أجمل النساء . والخادمات يقصدن الى لقاء من كان منهن على ميعاد والطلبة يجدون فى اصطياد من يقع لهم من العذارى والاعيان يسيرون الهوينا وهم يتحدثون عن السياسة الداخلية والخارجية . ثم بين هذه الجموع جماعة الشحاذين يضرعون ويسألون الصدقات

ويطلع حينذاك فاوست وتلميذه فاجتز على هذا الخليط من الناس فيؤثر فى نفسه مايراهم فيه من فرح بالعيد وسرور وهناء وقد خرجوا جميعا فى اليوم المشهود يبغون النعم والهواء لينعموا بالتحرير من عملهم وحرفهم المضنية فاذا استمع الى صيحات الطرب يرددها أهل القرية واذا لمس فى وجوههم تلك السعادة التى لا يخالطها كدر طرب هو الآخر وشعر بان فى الحياة نواحى اخرى اذا انتحاها سعد مثل الآخرين .

وكان فاوست فى مصيره بين الناس يلتقى بمظاهر الاحترام والاكرام من الجميع فيحيونه فى اجلال كبير ويطأطئون امامه الرؤوس ويشركونه معهم فى الشراب الذى يشربون

ثم هو بعد ذلك يسير مع تلميذه فاجر الذى يفخر بان يكون رفيقه فى رياضته ذلك الرجل العظيم الذى يحترمه الجميع فيمضى يحدثه عن ذلك ويكون بين الاثنين حوار عن العالم وعن المكتشفات العلمية الحديثة وعما فيها من شر على الانسانية وعاجز تدهشه كيف يقيد شرما وصل اليه بحث استاذه فى العلوم الكيمائية ولكن فاوست يعود فينصرف عن الحديث فى الفلسفيات ويتطلع الى السماء والشمس وهى توشك أن تغيب ويتطلع الى الاشجار واعالى الجبال ويرنو الى الجداول وهى تنساب فوق الثرى كأنها الحيات ثم ينظر الى الطيور وهى تهبط وتنتقل من فنن الى فنن فوق الغصون فيتوق أن يكون له جناحا طائر ليعلو فى الفضاء وليرح روحه فى السماء العليا حيث الارواح والملائكة وهو يتمنى فى مريرته أن لو كان له (بساط سليمان) ليطير فى الفضاء

وبينما الاستاذ والتلميذ يوشكان أن يعودا ادراجهما اذا بالدكتور يلمح كلبا أسود يدب بين الاشجار فيستلفت بصره اذ كان يدور حولهما على شكل دوائر تتضايق فى كل دورة وكان يخيل له الخيال انه يرى على أثر هذا الكلب شعلات من نار تلهب الا أن فاجر لم يكن يرى فى الكلب الا أنه كلب لا أقل ولا أكثر ولم يكن يرى ناراً ولا اشتعالا بل هو كلب لا غير وحينما يشارفهما الكلب اذ يقول فاوست انه فى الحق الكلب لا غير فيمضيان وفى رفقتهما الحيوان الاعجم

ويدخل فاوست الى حجرة الدراسة ومعه الكلب .

***

جلس فاوست يتحدث الى نفسه ويذكر الحقول والوديان ويناجى الليل بماله من ظلمة تحيط بالنفس الكئيبة وبما فيه من سكون وأسرار الا ان الكلب يتحرك فيحدث صوتا يقطع عليه المناجاة المعتمة فيزجره اذ أن أصوات الدواب ليست مما ينسجم مع الخواطر المقدسة التى تجيش بنفسه ، ثم يفتح الانجيل ويحاول أن يترجم أول عبارة منه بترجمة غير التى يعهدها الناس الآن الكلب الاسود يعود يعوى فينهره الفيلسوف ويطلب منه أن يسكت عن ازعاجه أو يمضى الى حاله فالباب مفتوح الا أن الكلب لم يكن سوى عفريت فى صورة حيوان أخذ ينمو جسمه ويزداد فى الطول والعرض ويعلو وينتفخ حتى صار أشبه بفرس البحر جثة وتمجا وصارت له أنياب وعينان مشعشعتان كالسراج

الا أن فاوست قد تعلم السحر والشعوذة فهو يدرى كيف يلاقى العفاريت اذا ظهرت فيتلو عزيمة العفاريت الاربعة سمندر واندينه وسليفا وكربولد فلم تجد (العزيمة) نفعا فيتلو (عزائم) أخرى أشد وقعا ثم رسم على صدره اشارة الصليب فانتفخ الكلب وعظمت جثته حتى أصبح اكبر من الفيل جرما ثم استحال جلده بخاراً خرج منه ابليس وهو فى زى طالب علم متجول

وحينذاك يقوم حوار بين فاوست وابليس يزعم فيه الاخير أنه عنصر الضلال والافك والجريمة فى هذا العالم الا أنه جزء من الظلام الذى ينبثق منه النور وانه قريب ذلك اليوم الذى تفنى فيه الاجسام وتنمحى من الوجود الصور والاشكال فلا يكون ثم نور وضياء وانما ظلمة طخياء ثم هو يزهو ويختال معجبا بنفسه

ربما أملك من مخلوقات يدها فى نظره حقيرة لا أن أدوات الدمار التى يستعملها لم تكف لفناء لم اجهز اذ جاءت سلالات من البشر عديدة
يكونون غما ويأسا وأخيرا يستأذن فى الروح
يهب فاوست منه كيف يستأذن وهو قد دخل
فان فيقول ابليس أن بعتبة الباب طلسما
من الاضلاع يمنعه من الخروج فيشير عليه
الخروج من النافذة فيتأبى اذان قوالين الشياطين
ابس على الزمن دخل من فرجة فلا يخرج من
بها. وأخيرا يحاول ابليس سبيلا آخر الى
الخروج فيستحضر جمعية من الشياطين ينشدون
الاناشيد المروحة للنفس والتى تحمل الانسان الى
وادى الخيال والصور فيذهل فاوست وينعس
وهو يحلم فيرى ما تقوله الاناشيد من وصف
الحياة المادية حياة المرح واللهو والمجون حياة
البطالة والخمر والحسان

ير ابليس ويستدعى فأرا من الفيران يقضم
بعه الصغير ذلك الطلسم الموضوع عند عتبة
الباب ثم يمشى فيصحو فاوست وينتبه الى خدعة
الشيطان.

***

وزور ابليس فاوست للمرة الثانية وهو
فى هذه المرة يأتيه مرتديا زى النبلاء وهو أكبر
ما يكون وقانا الى اغوائه ويقضى اليه الدكتور
بذات نفسه ويحدثه عن حالة اليأس التى كان
عليها وكيف انه كان على وشك الانتحار يوما
الا أن نشيدا طرق سمعه وذكريات مرت بخاطره
فانكبت يد ولدته الذكرى وكانت كفته لا بليس
بعض ألما وحسرة وشجونا وهو يصف الليل
والضجر وهو يصف الهموم والاحلام المروعة
وهو يصف الشوق الى الحياة الاخرى حيث
لا حس ولا حركة حيث لا يبقى من ذلك الهيكل
الادمى غير روح يسمى فى الفضاء مرحا طروبا
ثم هو بعد ذلك يملك اليأس ناحيته فيلعن كل شىء
فى الوجود فيلعن الامل والمثل الاعلى والشهوة
والخلود وهو يلعن المال والاهل والاقربين
والحب والنساء والعاشقين كما يلعن العيد أخيرا
فيرفه عنه ابليس اللعين ويعرض عليه أن يكون
صديقه الحياة بل عبده ورفيقه على أن يصير
فاوست بعد الممات عبدا رقيقا لابليس

وتم الاتفاق بين الاثنين وبهذا الاتفاق
جرد فاوست من نير العلوم ليحى حياة الناس
ما فيها من نعيم وشقاء حب وبغض وليتذ
باشر ما يلتذ به الناس من أشياء

ويخرج الاتفاق من الحجرة المظلمة
وقد بسط ابليس عباءته امتطيا كلاهما وفضيا
يسبحان فى الفضاء.

***

أراد ابليس أن يشعر فاوست بالحياة الجديدة
التى رضها نفسه المتعطشة الى ما كانت محرومة
منه فأخذه الى حانة أورباخ فى مدينة لبرزج
الجميلة. هناك كان الناس يجرعون الخمر ويمرحون
ويشدون الاغانى ويمزحون ويروون القصص

نزل فاوست ودليله ابليس الى تلك الحانة
وهو أشد ما يكون شوقا الى هذا النوع من
الحياة الا أنه وهو الرجل الذى دخل فى سن
الكهولة وشاب منه الشعر وأحاط بذقنه
لحية لئة وهو الرجل الذى قطع ذلك العمر
الطويل بين الكتب والاسفار لم يكن يسهل
عليه المزاح والمجون اذ أن طبيعته وعاداته كانت
تخالف تلك الحياة التى يقبل عليها. وشعر ابليس
انه قد اخطأ اذ قاد فاوست الى هذه الحانة قبل أن
يبذل منه شخصا آخر شخصا فى السن جم الفتوة
له مرح الشبان وحرارة الفتيان. فيه طبيعة
ثائرة ورغبة وثابة فهو يأخذه اذن الى ساحرة
يبتاعها شرابا أو أكسيرا يعيد الشيخ المتهدم فتيا
جميل الصورة مفتول العضل.

وفى حجرة الساحرة قدر على نار به ماء
يغلى وفى الزوايا عدد من القردة يتصايحون
ويقهقهون وتقبل الساحرة فترى الوافدين
ويحدثها ابليس عن الغرض من الزيارة فترمم
العجوز الشمطاء دائرة تدخل فيها وهى
تحمل كتابا ومعها قردتها وهم يمدكون المشاعل
ويدخل بينهم فاوست وهو يتأبى ولا يدرى
شيئا مما يفعلون.

ثم تقرأ الساحرة فى كتابها كلاما يعيده
فاوست هذيانا وبعد ذلك تملأ الكأس بالشراب
الموعود ويجرعها فاوست ثم يخرج برفقة ابليس
شابا يافعا.

***

مر فاوست الشاب الجميل الحسن الصوت
فى بعض غدواته بفتاة تدعى مرجريت بالغة
من الجمال حدا يفوق الوصف فشغف بها من
أول نظرة حتى انه اعترض طريقها وطلب أن
يرافقها الى منزلها الا أنها أبت ومضت وتركت
فاوست يحترق الاسم واذا بابليس مقبل نحوه
فسأله أن يأتيه بتلك الفتاة الصبوح الا أن
الشيطان يرى الصعوبة فى هذا السبيل اذ أن
الفتاة من الاتقياء الذين يقومون بالفروض
الدينية ويتعبدون وهو ينصحه أن يبحث عن
غيرها ولكن فاوست الفتى المتقد حماسا
المشتعل رغبة وهو لا يقبل الا هذه الفتاة
المليحة ويلح على الشيطان ليفوزها وهو لا يرضى أن
يتلبث حينا طويلا حتى تكون بين ذراعيه ويعيب
فى الشيطان عجزه عن القيام بالمهمة التى طلبها منه
الآن ابليس يرى من العسير القيام بالمهمة فى
وقت قصير ويرى أن يتوسل الى الفتاة بالحيلة
والخداع وهذا يحتاج الى وقت ما وانما يأخذه
الى مخدعها فى وقت تكون فيه عند جارة لها
تزورها ثم يتركه وحده ليملأ شوق عبير غرفتها
ويمضى ضاربا فى الارض يبحث عن هدية يأتى
بها ليقدمها فاوست الى حبيبة القلب

ثم يأتى ابليس بعد حين يحمل هدية ثمينة
من الحلى التى يتزين بها النساء ثم يودع صندوق
الهدية فى خزانة الملابس ويعتذر فاوست بان
مرجريت قادمة وانها يجب أن يرحلا حتى
لا تتزوع من وجودهما فى غرفتها

وتخلع مرجريت كساءها وتضعه فى الخزانة
فتشير يدها بصندوق الحلى فتدهشها هذه
المفاجأة غير المنظورة وتحسبها رهنا أودعه
أحد الناس عند أمها حتى يوفى ما لا يكون قد
استدانه

ألا انها تشك فى الامر فتطلع أمها على
الصندوق فترى مها ان من الخير ايداع الصندوق
عند القسيس حتى يرتاح ضميرها ولا تكون قد
أخذت ما ليس لها

يسر القسيس الحلى فيودعها فى حبيبه
هادما مطمئنا ورعد اثرتين بالاجر والثواب
عند الله فتلقتنا الرعد فى خشوع وتقوى

***

ويزور ابليس مارتا تلك الجارة التى تتردد
عليها مرجريت ويبلغها ان زوجها قد مات
فى بلدة بادوا فتحزن عليه ثم تدهش بعد قليل
حينما يفيدها ان المرحوم لم يترك شيئا يعنيها ثم
تحزن حينما يسمعها انه حيثما فاجأه الموت نادم
أشد الندم على زلاته واخطائه التى اقترفها
فينصحها ابليس أن تتزوج فهى ما زالت صبوحة
الوجه فاتنة القد الا أنها تريد أن تستمع الى
القصة برمتها فيتمم الشيطان وهو يلعب بعواطفها
بحيث كان يبكيها حينا ثم يجعلها تعب زوجها
وتلعنه حينا آخر وأخيرا تطالبه بان يأتيها ببرقة
تثبت وفاته فيعدها ويتركها على أن يعود اليها
برفقة صديق طاف العالم ويرجو أن تكون
مرجريت حاضرة عند زيارته القادمة

فاذا كانت الزيارة الثانية فاذا فاوست يجالس
مرجريت والشيطان يحدث مارتا واذا الحب
متبادل بين الجميع واذا مرجريت قد آنست
بفاوست فتحدثه عن عائلتها وانها أميش وحيدة
مع أمها اذ أن أخاها الجندى بعيد عنهما وهى
سعيدة فى حياتها وهى لا تعرف من الحياة الا
أن تبكر فى الاستيقاظ وتقوم باعمالها المنزلية
وهكذا جميع أيامها لا تتغير

ثم يجولان فى ناحية بعيدة فى الحديقة
وهما يتحدثان عن حبهما القوى وكل شغوف
باصاحبه حتى يأتيا الى كرخ صغير فيختفيان
فيه يتبادلان القبل والضمات ويكرعان من
كؤوس الحب ماشاء لهما الهوى

***

وحينما يجلس فاوست الى نفسه يشعر بالجريمة
التى اقترفها وبالشقاء الذى سيصيب تلك الفتاة
التى أحبها والتى كانت قبل أن تعرفه سعيدة فى
حياتها الهادئة مع أمها

وحينما تجلس مرجريت الى نفسها تتحدث
عن خطيبها وشقائها المنتظر وتبكى فى حرقة
وهى جالسة تغزل وتغنى أثناء ذلك غناء المكلوم

ثم يتقابل العشيقان ثانية فى حديقة مارتا
وتتحدث مرجريت الى فاوست فتسأله وهى
التقية الدينة هل يعتقد فى الاديان وفاوست
الفيلسوف القديم يجيبها اجابة فيها فلسفة وتورية
لا تفهمها وتحسبه لا يؤمن بالله فتكرب اذ تراه
ليس راسخا فى المسيحية ثم تحدثه عن نفورها
من صديقه الذى يصحبه فى غدواته وروحاته
حتى انها لتحس فى صميمها انها تكاد تكره
فاوست اذ تكره مرأى صديقه الشيطان

وبعد قليل تستأذن مرجريت فى الرواح
اذ أنها قد تأخرت وتعده بان تقابله مرة أخرى
هى لا تطيق فراقه وهى ذاهلة فى حبها له هى
لو كانت وحيدة لقابلته كل يوم الا أن أمها
تراقبها فيعطيها فاوست زجاجة بها شراب يمكنها
أن تقطر منه بعض قطرات فى كوب مها فتنام
اذا ما زارها

وعند البئر تذهب مرجريت لتملأ جرتها
ماء فتلتقى هناك بترب من أترابها تدعى لزا
تحدثها حديث بادبارها وتنبئها ان باربارا قد هفت
فسقطت وانها لم تعد تلك الفتاة ذات الانف
الاشم المملوء تيها وخيلاء فقد انحنت غلاما
هو ابن الجريمة والغواية. ولبزا حينما تتكلم

تتهم على القماقما اقترفت وتعد هاجرة تستحق
أشد أنواع الجزاء الا أن مرجريت تستمع الى
القصة وتترحم على الجانية الشقية وتذكرها
القصة بهفوتها التى هفت فتصيح. رباه رحمك
ثم تذهب عند تمثال العذراء فى احدى زوايا
سور المدينة فتضع أزهارا أمام آنية وتجلس تتأمى
العذراء الى عين باكية ودموع غزار ويقبل
الجندى فالتتين والد سمع القصة وهو حانق
على أخته مرجريت التى كان يحبها حبا عظيما
وكان يفخر بها فى مجلسه حينما تروى أحاديث
الحسان. الا أنه اليوم يغلى وجهه خزيا وعارا

وبينما هو يشرف على المنزل اذ يلمح
شبحى فاوست والشيطان فى الظلام فيصر فى
صميمه اذ لعل أحدهما يكون الجانى الاثيم
فيفاجئهما فالتتين ويصيح فى وجههما وقد
سمعهما يتحدثان عن فتاة غرارا بها وكان ابليس
يوقع أنشودة بهذا المعنى على قيثارة كان يحملها

ثم يقوم بين الجندى وبين فاوست نضال
ينتهى بقتل فالتتين.

فيصحوا السكان وتستيقظ مرجريت
ويتجمع الناس حول القتيل ويهرب فاوست
والشيطان

وحينما تجد مرغريت أخاها غارقا فى بحر
من الدم القانى تبكى بكاء مرا الا أن فالتتين
يفيق فترة لا ليردها وانما ليصب عليها جام
غضبه فيدعوها عاهرة فاجرة ويعرض عليها
صورة حياتها التعسة الشقية ثم تغشى سكرة
الموت فلا يفيق.

***

مضى ابليس حاملا فاوست الى مجمع الشياطين
والعفاريت ليلهيه عن التفكير فى الجرائم التى
اقترفها بتدنيس عرض فتاة طاهرة القلب وتاتل
أخيها وبالسبب فى تسميم أمها فلم يبق لها فى
الحياة نصير وأصبحت وحيدة لا يؤنس وحدتها

الا أن فاوست الذى لم يبلغ من الشر ذلك
المبلغ البعيد الذى بلغه الشيطان ظل يذكر
الجرائم الشنيعة المروعة التى اقترفها فبات يشفق
على نفسه انصياعه لابليس اللعين وأصبحت
تؤلمه الحالة المؤلمة التى صارت اليها مرجريت
التى أودعت السجن تعانى الآلام الجسدية
والنفسية لأنها قتلت طفلها ابن الجريمة.

لقد برح بفاوست الألم وأمضه الندم
فصب جام غضبه على رفيقه ابليس ومضى يلعنه
بانه كلب حقير وبانه وحش بشع الصورة وانه
من الارجاس الادنياء.

وأما ابليس فهو متهكم هازئ من هؤلاء
الآدميين الذين يتعاقدون مع الشياطين ويتخذون
منهم رفقة وصحابا ثم بعد ذلك ينقمون على
الشياطين وأولى لهم أن يقوموا على أنفسهم
فيصيح فاوست بابليس أن يسكت وأن يحاول
انقاذ الفتاة المسكينة ولا يضيع الوقت عبثا
فى نقاش لا جدوى فيه

وبعد لأى وتلبث يرتقد الرأى على أن
يذهبا سويا الى سجن مرجريت لينقذها ويكون
على الشيطان أن يفقد السجان رشده ويكون
عمل فاوست أن يأخذ مفاتيح الغرف فيفتح
باحداها باب غرفة حبيبته ثم يهمها على الخيل
المسحورة التى يأتى بها الشيطان لأجل هذا
الغرض.

ويدخل فاوست حجرة مرجريت فاذا هي تبكي وتنتحب وتحسبه في ظلام الليل وهو يفك قيودها انه الجلاد قد أتى ليأخذها الى حيث تلقى جزاءها .

الا أن فاوست يسمعها صوته فلا تصدق أذنها ولكنها حينما تسمع ثانية وثالثة تتعلق به وتعانقه وتقبله مرات ومرات وهي تبكي ودموعها تسيل

ومضى فاوست يستعطفها ويدعوها الى الذهاب معه فانه قد أعد العدة للفرار من السجن . الا أنها لا تقبل لانها مرجريت التي جرعت أمها كأس الموت وأغرقت طفلها في اليم

فليس لها بعد هذه الجرائم الشنعاء الا أن تستقبل الموت فلخير لها أن تقبر بجانب أمها وولدها من أن تحيا حياة الاثم والفضيحة والعار ولئن تركت العقاب الجسدي فستلقى بعقاب الضمير وهو اشد وأنكى .

فاستحلفها فاوست أن تقبل الذهاب معه وأن تسرع فان الفجر أوشك أن يطلع ولكنها ترفض وتأبى وهنا يقبل ابليس في سحنته البشعة ويعلن فاوست بأن السجان كاد يصحو وانه قد كتب لها الهلاك وقضى الامر .

حنفي محمود جمعة
المحامي
عضو الجماعة

الامتحان

قيمته في التربية

لهم جل علماء التربية والمشتغلون بأمور التعليم تقريبا على أن الامتحان لنظام ضروري أثبتت التجارب صلاحيته في تقدير معلومات الطلاب والوقوف على الحد الذي بلغت اليه ثقافتهم ولم يشذ على هذا الحكم الا نفر قليل منهم . وهذا الفريق المعارض لا يرى في الامتحانات الفائدة المرجوة منه ولا يرى فيه الا نظاما عقيما لا يصلح لان يكون مقياسا صحيحا لتقدير معارف التلميذ وهم اذ يقولون ذلك لا يرشدوننا الى الطريقة المثلى أو الى النظام الأقوم الذي نستطيع أن نستعيض به عنه وانما يكتفون بتعداد مثالبه للتوصل الى حكمهم النهائي على عدم صلاحيته للغرض المقصود منه

ونحن لا ننكر أن الامتحان مساوىء كما أن له مزايا ومحاسن وفوائد عظيمة لا يمكننا الاستغناء عنها بحال من الاحوال اذ ليس لدينا في الوقت الحاضر سبيل آخر نسلكه في قياس المراحل التي قطعها الطالب في دراسته العلمية أو الفنية سواء أكانت هذه الدراسة نظرية أم عملية .

والامتحان اما شفهي وتحريري والحكمة في هذا التقسيم ان هناك مواضيع لا يمكن الاختبار فيها الا شفهيا كصحة النطق في المطالعة وسلامة تركيب الجمل في المحادثة وكالمواقف الخطابية التي تتطلب ذلاقة لسان وسرعة خاطر ودراية بنفسية الجماهير كما أن هناك مواد أخرى لا يمكن الامتحان فيها الا تحريريا كالرسم والخط والانشاء

والامتحان التحريري من خير الوسائل لبث روح الاعتماد على النفس والتدقيق والروية في الاجابة وحصر الفكر زمنا طويلا في الموضوع المبحوث فيه وبذلك يزيد انتباه الناشيء الى كلياته وجزئياته فتنتظم اجابته وتتناسق الفاظه وتحدد معاني عباراته ولكنه على كل حال ليس كافيا للحكم على الشخص حكما صحيحا من جميع الوجوه فهناك صفات أدبية وعقلية كاملة لا يكشفها الا الامتحان الشفهي كأدب الحديث والميل الى العمل والشغف بالعلم ولين الجانب ورقة الطبع وسرعة الخاطر وسعة الحيلة للتخلص من المآزق

نرى مما سبق أن الامتحانين الشفهي والتحريري يتمم كل منهما الاخر فهما متصلان ولا يمكننا الاستغناء باحدهما عن الاخر اذ نظهر لنا صفات الشخص الادبية وقيمته المعنوية من الاختبارات الشفهية كما تتضح ثروته العلمية ومداركه العقلية من الاختبارات التحريرية

ويؤخذ على الامتحان الشفهي عدم دقة نتائجه لما يعتري الممتحن من الملل والتراخي في نهايته بعد النشاط والتدقيق في مبدئه مما يؤدي عادة الى عدم التساوي في القاء الاسئلة من حيث صعوبتها وسهولتها فضلا عما يفتقر اليه من طول الزمن وعدم التحيز عند وضع الدرجات وتنوع الاسئلة وعدم تكرارها كثيرا حتى لا يتفشى السؤال المكرر بين اوساط التلاميذ الذين ينتظرون دورهم فيحتاطون بالاستعداد له استعدادا خاصا .

ويثير البعض على الامتحان التحريري حملة شعواء واعتراضات لا قيمة لها ولا أساس لها من الصحة على الاطلاق فمن هذه الاعتراضات أن نتائجه لا تتفق مع الحقيقة والواقع لانه يساعد أحيانا على فوز طالب عديم الاهلية والكفاءة بينما يكون سببا في رسوب آخر شهد له مدرسوه بالذكاء والنجابة — والتعليل الصحيح لهذا الاعتراض انه قلما تحدث هذه الحالة وان حدثت تكون من قبيل المصادفات فحسب حيث يتفق أن تكون الاسئلة قد فاتت على التلميذ الاول فسبق له الالمام بالاجابة عليها أو تكون في الجزء القليل الذي يتقنه وبذلك يساعده الحظ على اجتياز الامتحان بينما تأتي هذه الاسئلة في جزء المقرر الذي لم يستعد له التلميذ الثاني فتكون سببا لكده طالعه على الرسوب . ولما كانت هذه الحالة كما سبقت الاشارة نتيجة المصادفة البحتة والاتفاق المحض كان واجبا على المنتقد ألا يعيرها التفاتا لانها لا تغير قيمة الامتحان الرئيسية

ومن هذه الاعتراضات أيضا أنه يحدث اضطراب لبعض التلاميذ فيه . فلا يستطيعون جمع شتات أفكارهم ويترتب على ذلك اما رسوبهم واما تأخرهم بسبب عدم اجابتهم اجابة كاملة وبديهي أن هذا الاعتراض لا يستدعي ردا لان الشخص الذي تعوزه الجرأة وعدم الهيب أمام لجنة الامتحان هو شخص خائر الهمة فاتر العزيمة لا ينتظر له نجاح في الصراع العملي الذي هو مقبل عليه وأولى بهذا الطالب أن يتمم تربيته ليزود نفسه بعزمات الرجولة الحقة ، وان هذا الاعتراض لا يصلح أن يعد من مثالب الامتحان بل يجب أن يعتبر بحق من مزاياه ، لانه يكشف للممتحن عن هذه الصفات الكامنة في الطالب والتي لها أسوأ الاثر على حياته المستقبلة اذا لم يقاومها بإصلاحة الفضيلة كضبط النفس والاناة ومقابلة الشدائد بصدر رحب .

والامتحان على ثلاثة أنواع عام ومدرسي وامتحان مسابقات — فالامتحانات العامة تعقد الآن سنويا عقب انتهاء العام الدراسي والغرض منها تخريج الطلاب الذين بلغوا من الثقافة حدا معينا يمنحهم شهادات تدل على مقدار كفايتهم وبهذه الوسيلة تستطيع الحكومات والشركات وغيرها من المصالح القومية اختيار من تحتاج اليه في خدمتها العامة والخاصة .

أما الامتحانات المدرسية فهي الاختبارات التي تفرضها المدرسة في أوقات معينة من السنة وفي نهاية العام لتستطيع تقدير ما قام به الطلبة والمدرسون بين كل وقت وآخر من جهود ولكي ترتقي بالتلميذ من فصل الى آخر كلما كان جديرا بهذا الانتقال ويدخل في هذه الامتحانات أيضا الاختبارات الشهرية والاسبوعية التي يقوم بها المدرس في فصله سواء أكانت هذه الاختبارات تحريرية أم شفهية بقصد استذكار الدرس الماضية وتمرين النشء على الاجابة في مختلف الاسئلة وبث روح المنافسة بينهم

أما امتحان المسابقة الذي يكون القصد منه اثالة بعض أوائل الفائزين جوائز مادية فلا يحسن الاخذ به في المدارس لانه يرى في نفوس الطلبة مضار جسيمة أقلها الاثرة والحسد والزهد في الابحاث العلمية لذاتها وبث اليأس في قلوب بقية التلاميذ الذين لم يظفروا بالمكانة الاولى ولكن مثل هذا الامتحان يكون مفيدا جدا في غير المدارس كتشجيع الحكومة أو المجامع العلمية اوائل هيئة أخرى باعلان جوائز معينة لمن يقدم مؤلفا قيما أو قصيدة رائعة أو اختراعا جديدا أو تصميما حسنا أو غير ذلك من الامور النافعة فتحدث بذلك نشاطا بين فريق الادباء أو المهندسين أو غيرهم لنوال هذه الجوائز .

نرى مما سلف أن امتحان المسابقة من أحسن الوسائل على تقدم العلوم والفنون والآداب وأنا اذا القينا نظرة في التاريخ وجدنا أن هذا الامتحان كان ولا يزال معمولا به في البلاد المتمدنة فجان جاك روسو الكاتب الفرنسي الاشهر لم يصل الى قمة مجده الا بواسطته ولم يكن في كتابته يسعى الى المجد والشهرة وانما كان يكتب لينال ما يساعده على اصلاح شأنه

وما هو جدير بالذكر أن ادارة مصلحة الجمارك المصرية أدركت مزايا هذا الامتحان منذ زمن طويل فأخذت به لترقية مستوى موظفيها في اللغات الثلاث العربية والانكليزية والفرنسية وما زالت تعقد امتحانات المسابقة سنويا وتمنح أوائل الفائزين جوائز مادية لا بأس بها على شريطة ألا يدخلها الفائز الاول مرة أخرى في نفس المسابقة التي كوفيء من أجلها . وانما يشترط لتحقيق الفائدة المقصودة من مثل هذه الامتحانات أن يكون الممتحن في كلا الامتحانين الشفهي والتحريري اخصائيا ليستطيع بكفاءته وتجاربه ضبط التصحيح وتوجيه الاسئلة المتوفرة الشروط كما يشترط أن يكون أجنبيا عن المصلحة حتى يعنم التحيز ويصدر الحكم نزيها عادلا

ويقيم نظام الامتحان الاخير أيضا في المحاكم المختلطة في كثير من الاحيان للترقي بين موظفيها الكتابيين والغرض من ذلك ملء الوظائف الرئيسية الكتابية بأشخاص أكفاء يستطيعون تسيير الاعمال على وجهها الأكمل .

ويلاحظ أن الامتحان نظام عتيق ان تطورت أشكاله بمرور الزمن فهو لم يتغير في لبه وجوهره ففي الصين مثلا روعي منذ القدم الا يتطرق الفساد أو الغش الى أي ناحية من نواحيه ولا سيما في الامتحانات الاقليمية العامة التي تعقد مرة كل ثلاث سنوات لاختيار الكفاءات الممتازة اللازمة للخدمة العامة .

وكان الصينيون الى عهد غير بعيد لا يميلون الى تربية أبنائهم تربية حربية وانما كانت تكبر أمانيهم أن يتخرجوا على أيدي امتحانات المسابقة ليشغلوا وظائف الحكومة المدنية العالية بعد اتمام دراسة الاداب الصينية التي تستمد روحها وجوهرها من العقائد الكونفيوشسية وتاريخ الصينيين القديم وأخلاقهم وشمائلهم منذ ثلاث آلاف من السنين كما تشمل الغاء المقالات وقرض الشعر .

ونتائج الامتحانات الصينية تدل بحق من أنزه النتائج لان عقوبة الموت عندهم هي جزاء كل من يحاول أو يساعد على نجاح طالب بغير الوسائل المشروعة وبذلك كانت التحوطات والاجراءات التي يجب اتخاذها كما جرت العادة عندهم تتخذ بكل دقة وصرامة فحين وقت الامتحان يوفد مندوب امبراطوري من بكين قصبة البلاد السياسية ويعرف هذا المندوب بالممتحن الاعظم ، فاذا وصل الى مقر الامتحان اتخذت كل وسيلة لمنع اتصاله باصدقاء الطلبة الراغبين في دخول الامتحان وفي ساعة مبكرة من صباح يوم الامتحان تجتمع الطلبة بفناء الدار التي سيعقد فيها وتنادى الاسماء لاستلام تذاكر الدخول حتى اذا تكامل العدد أغلقت الابواب ولا يسمح بفتحها لاحد كائنا من كان الا بعد انتهاء الامتحان في نهاية اليوم الثالث من انعقاده .

ولذلك كان على الطالب أن يستحضر معه في سلة قبل دخول الامتحان طعامه وأدواته الكتابية .

ومن المبالغة في التحوطات انه اذا توفي أحد الطلبة أو الممتحنين أثناء الامتحان لا تشفع له وفاته في الخروج من الباب الذي دخل منه وانما تدلى جثته من فوق الاسوار لان الابواب تحرم فتحها قبل موعد انتهاء الامتحان .

ولا غرو اذن وقد رأينا قداسة الامتحان وصرامته عند الصينيين أن ينظر الى الطلبة الفائزين نظرة ملؤها الاكبار والاجلال وأن تعهد اليهم وظائف الدولة الهامة

عبد العزيز فياض
ليسانسيه في التربية والآداب
عضو الجماعة